الفن والحرب

عندما يستلهم الفنانون فى ابداعاتهم حروب التاريخ
ومواقف البطولة والأحداث الساخنة

بقلم
جمال قطب

الناشر .. مكتبة مصر .. سعيد جودة السحار وشركاه



الإهــداء

إلى ذوى النفوس الكبيرة الذين مهدوا لى طريق العطاء .

إلى تلك النفوس الخيرة التى أضاءت شموع العلم والمعرفة فى دروب الحياة ، وسط قفارها الموحشة .

إلى كل من قدم لى نقدا بناءً ، أو نصيحة غالية ، أو كلمة واعية ، أو لمسة حانية .

أهدى هذا الكتاب .

مقـــدمة

عندما هممت بجمع مادة هذا الكتاب ، وجدت أمامى خليطا من تراكمات شتى ، تمثل محاضرات جامعية ، ومقالات تتناول الفن فى كل صوره ونزعاته ، وما أحاط به من اهتمامات فى الدراسات الإنسانية كعلم الجمال ، والتذوق الفنى ، وفلسفة الفن ، وغير ذلك من النتاج الإبداعى عبر القرون .

هناك المقالات المتكاملة التى توفى الموضوع حقه من كل هذه الزوايا ، كما أن تلك السلسلة التى كنت أنشرها فى مجلة « الدوحة » تباعا على مدى سبع سنوات تحت عنوان : « روائع الفن العالمى » وسلسلة أخرى تشمل المئات من المقالات التى نشرت فى جريدة الرياض السعودية تحت عنوان : الملهمات فى الفن والتاريخ ، وكذلك عشرات المقالات التى تتحدث عن الفن الإسلامى بكل مدارسه وتطوراته وأقطابه منذ فجر الإسلام حتى مشارف العصر الحديث ، التى كتبتها لجريدة : « الهيرالد تريبيون » العالمية ، ومجلة « الهلال » المصرية ، وبعض الجرائد والمجلات العربية الأخرى .

ومن بين هذه وتلك آثرت أن أبدأ بموضوعات الفن والحرب ، فهى مزج من أحداث التاريخ، وقضايا الشعوب، وإبداعات الفنانين العظام.. فأرجو ن نسعد سويا باستعراض هذه الومضات الإنسانية ، لنكشف بين جنباتها المعلومة المحققة ، والمشاعر الفنية المرهفة ، وعِبَرَ التاريخ ، من خلال الصراعات والأحداث الساخنة ..

فلنقرأ معا سطور ولوحات هذا الكتاب ؛ فإن فيها كلمات غير معلنة نخشى أن تسقط بين ضجيج الزحام ، وبُعد الزمان والمكان .

هيلين وحرب السنوات العشر الرهيبة

لاشك أن الأساطير القديمة بصفة عامة ـ والميثولوجيات الإغريقية على وجه الخصوص ـ كانت وما زالت مجالا رحبا ومنهلا سائغا للمفكرين والمبدعين على مر التاريخ .. فما من فنان خلد اسمه فى سجل الفن العالمى ، إلا وقد أدلى بدلوه فى هذه الكنوز الأسطورية التراثية .. وصاغ من رواياتها العديد من أعماله الرائعة .. وقد رأينا كيف ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر مدرسة فنية تقوم على الكلاسيكية الإغريقية والحضارة الوطنية الرومانية التى تلتها ، مستمدة موضوعاتها وأسلوبها من روح تلك العصور المثالية وبطولاتها الخارقة . لذلك أطلق على هذه النزعة المرتدة آنذاك : الكلاسيكية الجديدة .. وهى التى ظهرت فى فرنسا مع الثورة الفرنسية ، وتزعمها الفنان دافيد .. الحاكم بأمره فى كل ما يتعلق بشئون الفن وقتها ! وكان الغرض منها فى المقام الأول هو مؤازرة الثورة بالعودة إلى مناهل التراث القديم ، وتقويم مسيرة الفن الفرنسى الذى كان قد انحرف إلى البهرجة وإرضاء الميول الأرستقراطية والنعومة المترفة .. كما هدف كذلك إلى بث روح البطولة والرصانة والانتماء إلى الجذور .

وحتى يومنا هذا .. مازالت تلك الأساطير الإغريقية التى تمزج بين الخيال والواقع . تثير قرائح المبدعين أدبا وشعرا وفنا بكل أشكاله وألوانه ونزعاته .

وقصة هيلين أو إيلينا فاتنة طروادة .. أو حصار طروادة .. أو حصان طروادة .. أو حرب طروادة .. كلها أسماء لحدث واحد ، ولكنه حدث ملحمى مثير ، خلده « هوميروس » فى الإلياذة » فصار أنشودة شعر .. وأغنية حب ، وصرخة حرب .. وآهة غرام واشتياق .. ولمسة فنية ملهمة فى لوحات الفنانين العظام !

ولنبدأ قصة الحسناء التى اقتتل من أجلها الملوك .. واستُنفرت فى سبيلها الجيوش لمدة عشر سنوات كاملة . وأستميحكم عذرا إذا ذكرت كلمة « معبود » أو « إله » أو غير ذلك .. حسب معتقداتهم الإغريقية القديمة !

.. فى هذه الأسطورة نجد أن « زيوس » أو « جوبتر » كان معبودا جبارا سيئ السمعة يتعقب النساء . وكانت الملكة « ليدا » زوجة « تندارس » ملك إسبارطة أجمل نساء عصرها ، وقد حاولت أن تصد عنها هذا العابث المتلصص ، فاحتاطت من غدره بالتستر والحراسة والرقابة الدائبة ، وأحاطها زوجها الغيور بالجاريات والغلمان المسلحين لا يفارقونها حيثما ذهبت .. إلا أن جوبتر تخفى فى صورة بجعة بيضاء جميلة أحبتها الملكة الحسناء وصحبتها فى نزهاتها الخلوية وجلساتها بين خمائل قصرها .. كما كانت تشاركها حمّامها فى مياه بركتها المرمرية الخلابة .

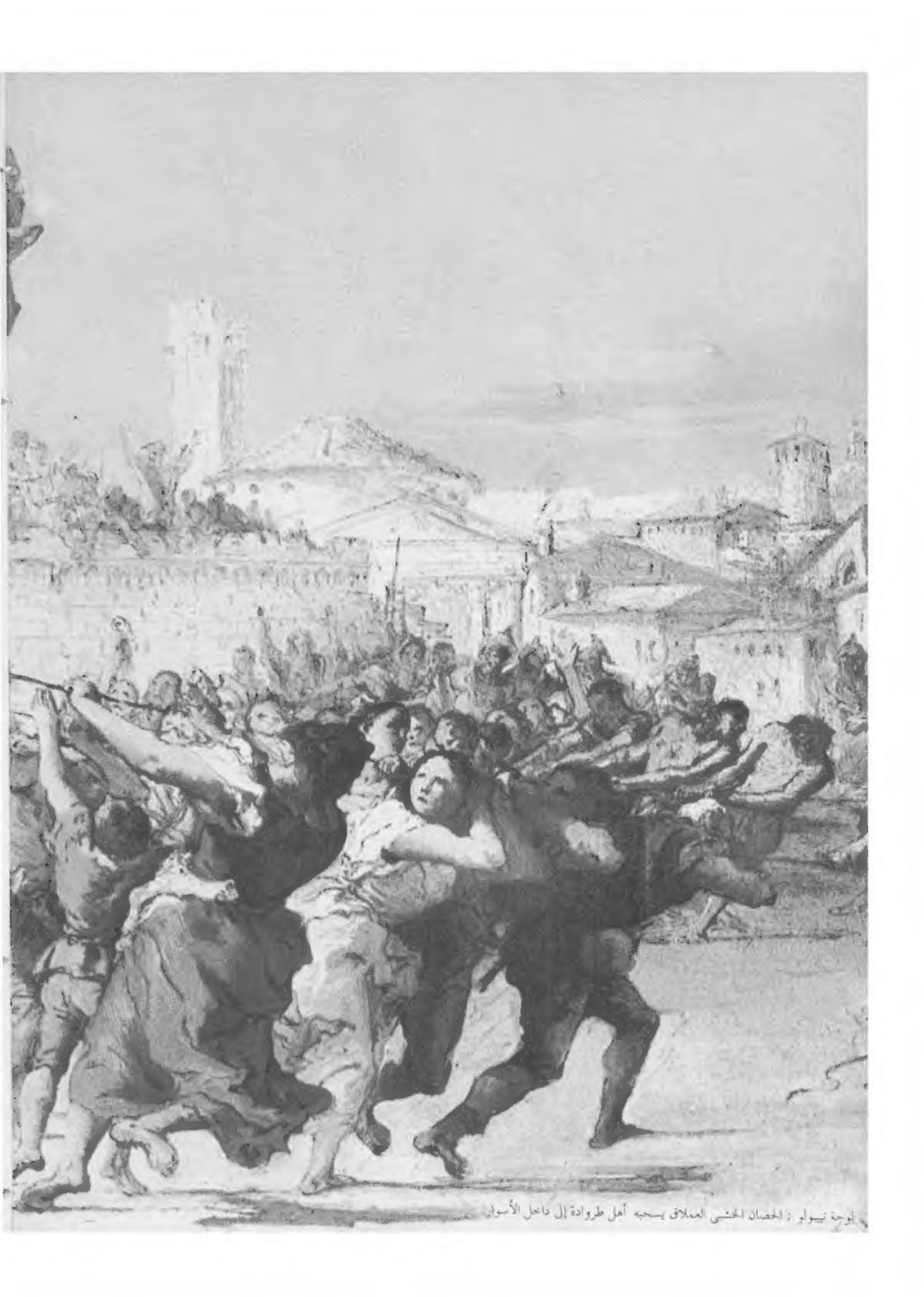
وقالت الأسطورة : إن ثمرة ذلك الغرام جاءت لائقة بمقام الأب وفتنة الأم وروعة الحدث العظيم ! فقد وضعت « ليدا » ابنة اطلقت عليها « هيلين أو إيلينا » اتسمت بالجمال والبهاء والجاذبية .. فأسماها الناس « إيلينا الفاتنة » !

ولما اكتملت أنوثتها ، كان على رأس دولة « إسبارطة » ملك جديد يدعى « منيلاس » ، وقد ظل ينقب عن فتاة رائعة الجمال تصلح زوجة له ، فلم يجد أجمل من إيلينا ، فشغف بها ، وتقرب إليها ، فبادلته الحب ورضيت به زوجا لها ، وكاد منيلاس أن يطير من الفرح والسعادة ؛ فقد اقترن بابنة « جوبتر » وأجمل نساء البشر على الإطلاق !

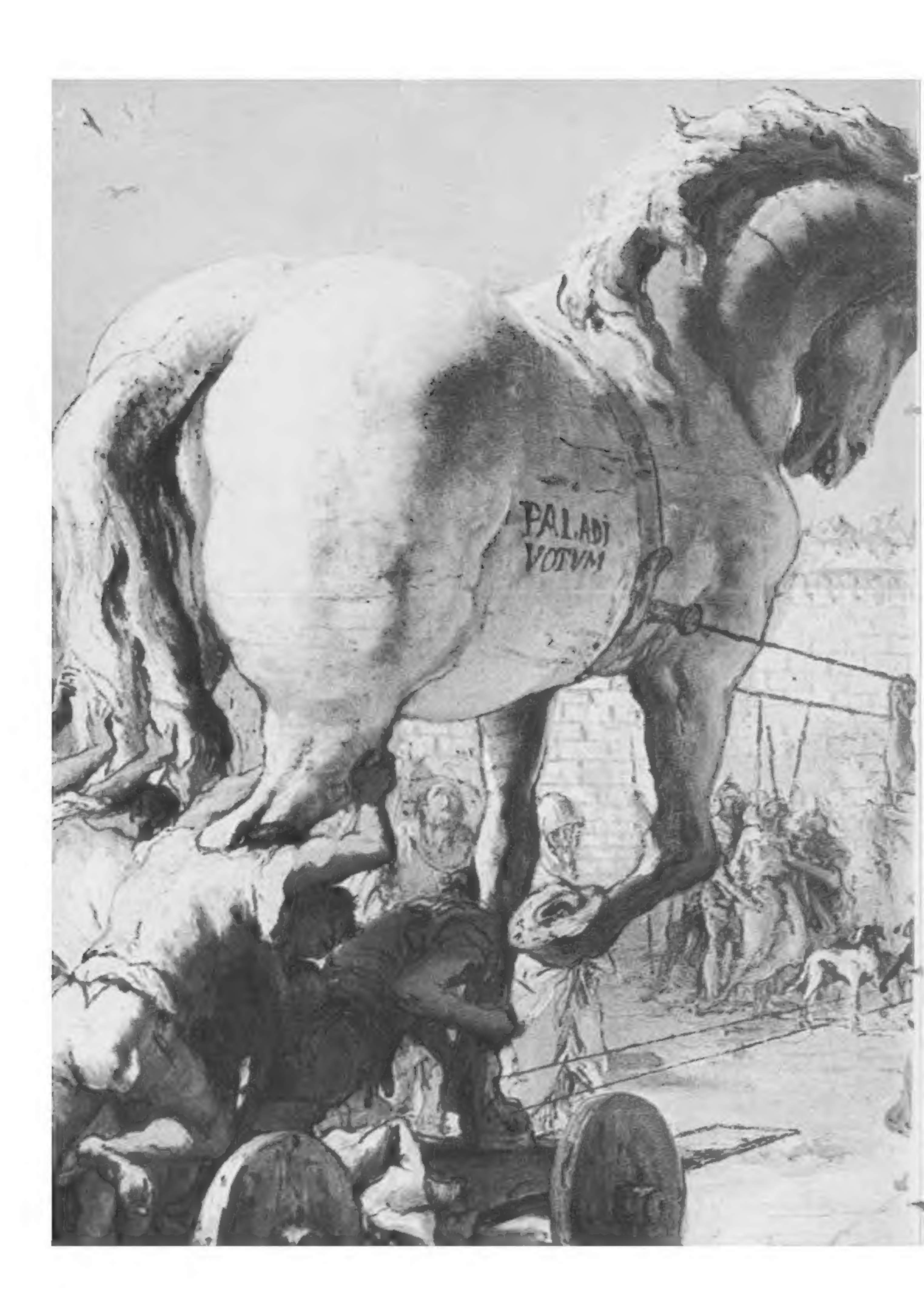
وكانت دولة طروادة فى ذلك الوقت تنافس دولة إسبارطة فى السطوة والجاه والرخاء وعلى عرشها ملك مهيب يدعى « بريام » ، شيد لعاصمته أبراجا شاهقة وأسوارا منيعة تحرسها جيوش جرارة للدفاع عنها وتوسيع رقعة أملاك طروادة العظيمة . وحدث أن أوفد بريان ابنه « باريس » إلى منيلاس ملك إسبارطة ، ليفاوضه فى طائفة من شئون الدولتين القويتين المتنافستين ، فاستقبل الوفد الطروادى فى إسبارطة بالحفاوة والتقدير .. وفى أثناء الاحتفال الكبير الذى أقيم احتفاءً بباريس ومن معه ، وقعت عينا باريس على إيلينا الفاتنة ! فبهره جمالها .. ولم ينم ليله .. فقد وقع فى غرامها ! وكان جمال الفتى باريس له مفعول السحر فى نفس إيلينا فى الوقت ذاته .. فأحدث بها ذات الأثر .. ونفذت سهام كيوبيد فى قلبيهما فى نفس اللحظة كما لو كانا على موعد !



لوحة الفنان (لورانس ألما تاديما) : هيلين ووصيفاتها يرقبن الأساطيل الغازية



لوحة تيبولو : الحصان الخشبي العملاق يسحبه أهل طروادة إلى داخل الأسوار


PALADI
VOTVM

خطة أفروديت

وتقول الأسطورة : .. وهنا كان لا بد من تدخل « أفروديت » ربة الجمال (حسب المعتقدات الإغريقية القديمة) فتهبط إلى الأرض لتربط بينهما برباط الغرام ، ولتبارك حبهما الذى استعر فى مهجتيهما من أول نظرة . ورسمت أفروديت خطة للقائهما : لقد اختطفت إيلينا من خدرها .. كما صحبت معها باريس إلى مكان قصى خارج حدود إسبارطة .. فى جزيرة نائية تدعى « كرانای » ، حيث قضى العاشقان شهر العسل هناك ، ثم واصلا السفر إلى طروادة .. ولكن ملك إسبارطة « منيلاس » لن يقف ساكنا وهو يرى زوجته وقد اختطفها باريس ورحل بها دون أن يعمل أى حساب له ولكرامة دولته ! وذعر أهل إسبارطة ، وروعهم هول هذا الحدث الرهيب ! وهبوا مطالبين بالانتقام والقصاص ! وحشد الإسبارطيون جيوشهم وزحفت جموعهم على طروادة وهم عازمون على دك حصونها وذبح سكانها ورد الزوجة الحسناء إلى مليكهم الذى يحبونه ويكنون له كل الإخلاص والولاء ! وما إن علم الملوك اليونانيون الآخرون بما حدث لصديقهم منيلاس ، حتى تطوعوا بالوقوف معه ضد طروادة .

ويذكر « هوميروس » فى الإلياذة أن عدد الدول اليونانية التى تحالفت مع إسبارطة على طروادة قد بلغ سبعا وخمسين دولة ، وعقد الحلفاء مؤتمرا حاسما فى مدينة « ميسينا » ، حيث نصبوا « أجا ممنون » ملك « أرجوس » قائدا عاما لجيشهم الموحد ، وهو فى نفس الوقت شقيق منيلاس (ملك إسبارطة) الذى اختطفت زوجته !

وزحف أجا ممنون على رأس مائة ألف محارب إلى سواحل طروادة ، وهاجم أسوارها .. ولم تكن معركة هينة ، فقد حشد بريام وابنه باريس وأعوانهما جيشا عظيم العدد والعدة تحت قيادة هكتور بن بريام (شقيق باريس) ، لمنع جيش إسبارطة من الوصول إلى غايته ونيل المرأة التى قامت من أجلها هذه الحرب الشرسة !

ونشبت بين الفريقين مذابح رهيبة ونزال عنيد بين كر وفر حول أسوار طروادة .. وظلت الحرب طاحنة بلا هوادة بينهما لمدة عشر سنوات كاملة ، ولذلك عرفت فى التاريخ بملاحم حصار طروادة أو بحرب السنوات العشر .

وفى النهاية .. اقتحم الحلفاء أسوار المدينة واستولوا عليها بفضل الحيلة التى ابتكرها أحد قادتهم هو « يوليسوس » ، فقد صنع هذا القائد الماكر حصانا عملاقا من الخشب ، اختبأت فى جوفه كتيبة من المحاربين الأشداء ، وتركه عند الأسوار الحصينة متظاهرا بالفرار مع جيشه .. ووجدها الطرواديون فرصة لتعقبه وجمع الغنائم التى خلفها وراءه ..

الإسبرطيون يصعدون الحصان الخشبى العملاق (إحدى لوحات تيبو



واحتاروا فى أمر هذا الهيكل الخشبي الغريب ، وأجمعوا فى النهاية على أنه مغنم ثمين سيحتفظون به رمزا لقهر عدوهم وانتصارهم عليه .. فأدخلوه إلى مدينتهم بعد أن ظنوا أن عدوهم قد اندحر إلى غير رجعة .. وفى جنح الظلام .. وبعد أن اطمأن المحاربون الإسبارطيون القابعون فى جوف الحصان إلى استسلام محاربى طروادة للنوم والسكينة .. انطلقوا هابطين واحدا تلو الآخر .. حتى إذا ما اجتمع شملهم فاجأوا أعداءهم من حولهم حتى قضوا عليهم ، ثم اتجهوا إلى أبواب المدينة ففتحوها لرفاقهم وأعطوهم إشارة الهجوم الساحق من كل اتجاه !

ذلك هو « حصان طروادة » الذى يضرب به المثل منذ ذلك الوقت ، ويرمز به إلى من تنطلى عليه الحيلة والخديعة فيسهل لعدوه اقتحام حصونه !

وقد كان هذا الحدث حريا بأن يلهم المبدعين بهذا المزج الرائع بين الحقيقة والخيال .. وبين الواقع والقصة الأسطورية المثيرة .. وبين لمسات الغرام الحانية وبراعة الحيلة والدهاء وشهوة الثأر والانتقام .. وبين النخوة والكرامة وملاحم الشجاعة والبذل والفداء .



إيلينا بعد العاصفة

وبينما كان الملوك والأبطال يتطاحنون أمام أسوار طروادة ، كانت الفاتنة المحبة تقيم فى قصر الملك بريام فى كنف ابنه باريس الذى اختطفها من خدرها بمباركة أفروديت ربة الجمال وسلطانة العواطف والقلوب الهائمة . كان بريام قد بلغ الشيخوخة التى زادت من ثقلها على كاهله تلك الحرب الرهيبة .. ولكنه كان يظهر الود لإيلينا — وهى أصل البلية والصراع والدمار — يأمر حاشيته وشعبه بأن ينظروا إليها كزوجة شرعية لابنه باريس .. أما صاحبتنا ذات السحر والجمال والدلال ، فقد تلاطمت فى صدرها مشاعر متناقضة : فهى تارة تحنّ إلى بيئتها الإغريقية وتهفو إلى وطنها الذى ترعرعت فيه ، وتندم على ما بدر منها نحو زوجها منيلاس من خيانة وغدر ، وهو الذى هام بها حبا ، وتفانى فى إسعادها والترفيه عنها .. وتارة أخرى تنسى ذلك كله وتتغنى بحب باريس وبكرم الطرواديين وبما تنعم به فى القصر الملكى من سعادة ونعيم .. بل إنها كثيرا ما تضرع إلى آلهتها أن تنصر حبيبها باريس على زوجها وحلفائه !

أما الطرواديون ، وهم بين شقى الرحى ، فكانوا يحقدون عليها لأنها جلبت لهم الخراب والدمار ، ولكنهم فى الوقت ذاته ينظرون إلى تلك الأحداث الجسيمة على أنها دفاع عن دولتهم وكرامتهم . وقد تتعدد الأسباب ، ولكن الصدام بأهل إسبارطة واقع لا محالة وكانوا يتوقعونه بين يوم وآخر .. لأن التنافس من القمة هو سبب كاف لأن تحدث المجابهة لسبب واقع أو مفتعل ، أو لخطأ متعمد أو غير متعمد .. أو لغير سبب على الإطلاق ! ويهمس الظرفاء منهم بهمسات كأنها مناجاة : إن هذا الجمال الرائع لجدير بأن تسيل من أجله الدماء فتنبت الزهور حول أسوارنا الشاهقة الموحشة !

وبين هذا وذاك .. دارت المعارك الطاحنة الجسورة ، وكانت الغلبة بعد خديعة الحصان الخشبى العملاق «فين ضد طروادة .. فدكوا أسوارها ، وأحرقوا فيها الأخضر واليابس ، وذبحوا كل من وقع فى قبضتهم من أهلها .. وأطبق المهاجمون على القصر وسكانه ، ورأى بريام أبناءه وهم يذبحون أمامه ذبح الطيور .. فاستسلم للمهاجمين .. ولكنهم صرعوه ليلحق بحاشيته وأبنائه .. ولم يبق فى قصره إلا النساء : هكوبا زوجته ، وكاسندرا ابنته ، وأندروماك زوجة ابنه هكتور الذى قاد جيوشه المهزومة .. فساقوهم إلى الأسر ، وسلبوا من المدينة التعسة كل ما وقع فى أيديهم !

أما إيلينا .. فقد خصص لها جيش كامل للحفاظ عليها والعودة بها إلى زوجها فى سلام .. واستقبلتها إسبارطة عن بكرة أبيها بالبشر والترحاب بعد أن شاع عنها (وصدقوا ما أشيع) وقتها بأنها غلبت على أمرها واختطفها الغاصبون عنوة ولم يرحموا تضرعاتها وتوسلاتها !!

واستأنفت إيلينا الفاتنة حياتها الأولى بدون أن يؤنبها ضميرها على شىء مما فات . بل إنها لم تعد تفكر فى تلك المجازر التى أثارتها بين الملوك والشعوب .. وكيف لا والكل من حولها ينعم بالسعادة لعودتها وإطلالتها البهية على شعبها المفتون بجمالها وسحر طلعتها ؟!

وإذا كنتم ممن يذهبون للسياحة فى رحلة الصيف إلى الربوع اليونانية .. فلا شك أنكم ستصادفون الأدلاء المرافقين لكم وهم يشيرون إلى قبرين متلاصقين فى بلدة « تيرابنى » ويقولون لكم : إن منيلاس وإيلينا زوجته هنا ينعمان بالراحة الأبدية فى هذه البقعة من الأرض اليونانية .. فلا تصدقوهم ، لأن الأسطورة التى كتبها « هوميروس » فى الإلياذة تقول غير ذلك :

إن « زيوس » (من آلهة اليونانيين القدماء) قد رأى أنه لا يليق به وبمكانته أن يدع الموت يسطو على حياة ابنته إيلينا ، فقرر أن يرفعها حية إلى مقره ، وأن يشمل بهذه المكرمة كذلك زوجها « منيلاس » !

... وتمضى أحداث التاريخ .. بحقائقها وأساطيرها وأسرارها .. وتبقى روائع المبدعين تذكرنا بنعم الله على عباده الموهوبين ، ممن اصطفاهم وحباهم شفافية البصيرة والإلهامات العبقرية .

عبقرية القيادة وعالم بلا حدود

كان التاريخ ــ وسوف يظل ــ مادة ملهمة للمبدعين على مر العصور .. وبالرغم من رحابة آفاق تاريخنا العربى والإسلامى ، ضاربا جذوره فى أعماق الزمان والأمصار والممالك .. إلا أن حصيلتنا المصورة من هذا التراث المجيد ضئيلة .. بعكس ما تراه من إنجازات فنانى الغرب الأوروبى الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من أحداث التاريخ دون أن يسجلوها فى لوحاتهم التى تزخر بها متاحفهم الكثيرة ! وقد وصل بهم الأمر من العناية بهذه المتاحف ودور الوثائق



ومجمعات التراث ، أن صارت هى المرجع الحضارى للباحثين والمنقبين فى زوايا التاريخ والمتطلعين إلى المعلومة المجسدة التى تبعث حية من تحت ركامات الماضى لتكون حلقة فى المسيرة الإنسانية الخالدة . ولذلك نقول دائما : إننا — فى غفلة من الزمان — تقاعسنا عن ركب الإبداع العالمى ، فى عهود الانحطاط والتفكك فى القرون الثلاثة الماضية ، بعد انحسار الإمبراطورية الإسلامية العظمى وأفول نجمها فى الشرق والغرب على السواء ، وبعد أن خبا تألق بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة والقيروان .. تلك التى كانت تعج بالمدارس الفنية العالمية حينما كانت أوروبا تعيش عهد الظلمات والضياع ، وانعكست الآية فى العصور الحديثة .. وأصبحت مدارسنا الفنية فى عهود الازدهار الماضية ، تُدرَّس كتاريخ توقفت فى شرايينه دماء الحياة فجأة .. واستبدلت بدماء دخلت جسمه غريبة عليه .. وكان من المنتظر أن يلفظها — كما يحدث فى جراحات القلب الحديثة — ولكن فنوننا فى عالم اليوم خليط غريب من مدارس أوروبية وتيارات أمريكية .. أو بمعنى آخر .. عاش الجسد العربى بهذه الدماء الأجنبية .. وفقدنا شخصيتنا العربية الإسلامية العريقة .. ومن يزر معارضنا أو متاحفنا .. يجد نفسه أمام فجوة هائلة تفصل بين أصالة أمجادنا فى عهود التفوق الإسلامى فى عصوره الغابرة .. وبين مرحلة (التحديث الأوروبى) الذى سرنا فى ركابه مبهورين بفقاقيعه وتوهجاته وحركاته البهلوانية الملونة !

كانت هذه خاطرة كثيرا ما تراودنى عندما أتدارس فنون أوروبا فى فترة ازدهارها فى القرون الثلاثة الماضية ، أى منذ أفول نجمنا نحن فى مجال الإبداع العالمى ! وعندما أقلب صفحات مجلداتى الفنية باحثا عن لوحات التاريخ والحروب .. لا أجد أمامى إلا استعراض أمجاد الفنانين الأوروبيين — حتى من تناول منهم تاريخنا وأجواءنا العربية فيما يعرف بحركة الاستشراق التى بلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر .. نجدهم قد وصلوا القمة فى الأداء ومهارة الصياغة الفنية عندما سجلوا عاداتنا وأحداثنا وحروبنا الهامة .. وكأننا قد ألقينا إليهم بمسئولية كل شىء عندنا بعين خبيرة ويد ملهمة .. ويطلق على هذه المدرسة الغربية التى اتخذت من بلادنا مرتعا وإلهاما لحركتها الإبداعية Orientalism .. وتزخر مكتبات العالم حاليا بالمئات من الكتب والمطبوعات الرائعة للوحاتهم الشرقية وأبحاثهم عن أرضنا وتاريخنا نيابة عنا !

ولعل فى هذه التقدمة ما يجيب على التساؤلات الكثيرة التى ترد إلىّ ، وفحواها : لماذا لا أكتب عن معاركنا الحربية العربية والإسلامية مستشهدا بأعمال فنانينا عبر التاريخ ؟!.

حقا ، إن الساحة الفنية العربية لا تخلو من محاولات فردية جادة لتخليد معاركنا الإسلامية ، ولكنها لا تمثل كمًا ولا كيفا يشفى غليل الباحث أو الكاتب أو الفنان الذى يريد أن يتخذ منها مادة مؤثرة سائغة للدرس أو النشر أو الإعلام ! كما أنها لا تمثل خطا متصلا أو حركة فنية تسجيلية كما هو الحال بين فنانى الغرب العظام ، هؤلاء الذين تزدان متاحف العالم بأعمالهم الخالدة عن أحداث التاريخ وحروبه الشهيرة .. وهو ما نعنى به فى هذا المقام على صفحات كتابنا هذا !.

حروب الإسكندر

عشرات من اللوحات العالمية .. أتطلع إليها فى مكتبتى الفنية بعجب وإعجاب تتناول موضوعا واحدا : هو حروب الإسكندر الأكبر .. أو الإسكندر المقدونى .. لقد سجل الفنانون الأوروبيون حياته وغزواته كما لو كان شريطا سينمائيا متصل الحلقات حتى وفاته ! وأقرأ ما جادت به قرائح المؤرخين والرواة عن الإسكندر .. وأجمع المعلومة تلو المعلومة من هذه وتلك ومن التعليقات على لوحات الفنانين فى كتب تاريخ الفن .. لنعيش معا هذه اللحظات الوجدانية فى بعض معاركه التاريخية الطاحنة فى بلاد الفرس .. ثم نرى كيف استلهم الفنانون سيرته فى لوحاتهم .

* * طار صيت الإسكندر الأكبر فى البقاع الآسيوية ، واهتزت بلاد الفرس من أدناها إلى أقصاها لخبر انتصاراته الرائعة على جيش « دارا » فى أول لقاء بين الفريقين ! وانعكست الهزيمة الساحقة على تصرفات دارا .. وارتبكت خططه ، ودب الشقاق بينه وبين قائد قواته « ممنون » .. فبينما يرى ممنون أن يستدرج القوات الغازية إلى الداخل بعيدا عن قواعدها ، ثم يطبق عليها لإبادتها .. يرى الملك عكس ذلك ، هو أن يخرج إليه دون انتظار ، ويؤيده حكام المقاطعات الذين أصابهم الهلع من تلك القوة



الخارقة التى يتمتع بها الإسكندر وجنوده .. ويخشون على أنفسهم وممتلكاتهم من سطوة هذا الشبح الرهيب !

وانطلق الفاتح الشاب فى حروبه .. يخضع المدن دون مقاومة .. ويصرع القائد الفارسى « ممنون » .. ليفقد « دارا » بموته أهم قواده .. ولكن المعركة الكبرى لم تبدأ بعد .. لقد حشد دارا لهذه الموقعة المنتظرة ستمائة ألف مقاتل ، ويلحق بهم نحو مائتى ألف خادم وامرأة يسهرون على خدمتهم ! واستعد الفريقان للنزال المرتقب . وكان جيش الفرس يتحرك ببطء حسب التقاليد الموروثة من قديم الزمان ، بينما يتحرك جيش الإسكندر بخفة لا تعيقه الأثقال .

خاطب الإسكندر جنوده قائلا : « أيها الجنود ، ستنتصرون اليوم كما انتصرتم بالأمس ، وستجدون أمامكم جنودا لا يمكن أن يصمدوا أمامكم للحظات .. إن ثمن الانتصار القادم أعظم من ثمن أى انتصار سابق حققتموه .. إننى أقدم لكم آسيا بأسرها مكافأة لكم على جهودكم وعنائكم وشجاعتكم » .. وصاح الجنود بصوت جماعى اهتزت له الأرض : سر بنا إلى النصر فنحن وراءك ! وتجلت فى هذه المعركة عبقرية القائد الأسطورية .. وكانت هزيمة « دارا » ساحقة .. فقد هرب من الميدان مذعورا .. وترك فلول جيشه الذى مزّقه المقدونيون شر ممزق .. ولم يترك دارا جنوده فقط .. بل ترك فى أرض الميدان أمه وزوجته وبناته وابنه الطفل الصغير !

وجىء بالسبايا إلى الإسكندر .. وسيق إلى مركز قيادته .. عائلة دارا .. ولفت نظر الجميع جمال زوجته الفتان .. وسحر خاطف ابنته الصبية « استاتيرا » التى كانت تتمتع بملاحة تأخذ بالألباب ! ويذكر التاريخ أن أحد القواد قد أبدى إعجابه بهذا الجمال الفارسى الذى تحظى به الابنة والزوجة .. فزجره الإسكندر قائلا : « هذا حديث لا يعجبنى ، يجب أن تخجل من تصرفك هذا .. ويجب أن تكون جنودا شرفاء ! » .

واستقبل القائد المقدونى عائلة القائد الفارسى المهزوم .. وبكت النساء تحت أقدامه ولكنه هدأ من روعهن ، وتعهد لهن بأنه سيمنع عنهن كل أذى .



* * ومن هذا الموقف التاريخى استلهم الفنان العالمى فيرونيز Veronese لوحته التى يراها القارئ على هذه الصفحات : (عائلة دارا « أو داريوس » تحت أقدام الإسكندر بعد وقوعها فى الأسر) [ونرى تدخل الخيال وانطلاق ملكات المؤرخين والروائيين .. وهم يتناولون قصة الإسكندر الأكبر والفتاة « استاتيرا » ابنة دارا ملك الفرس ، وكيف وقع القائد المنتصر .. فى أسر حبها وشراك لحاظها وسحر جمالها من أول نظرة .. ويبنون قصصا رائعة عن هذا الغرام الذى غير مجرى الحروب وصاغ حلقات جديدة فى مسيرة التاريخ ..] .

وجاء إلى الإسكندر فى معسكره رسل الملك الفارسى المهزوم يعرضون عليه إطلاق سراح الأسيرات مقابل فدية كبيرة من المال ، فقال لهم الإسكندر : « قولوا لدارا : إن هذه الحرب ليست موجهة إليه ولا إلى عائلته . إنها حرب هدفها امتلاك آسيا ! فأنا من الآن فصاعدا ملك الملوك .



وأنا الفائز المنتصر .. وليعلم دارا أنني اتخذت كافة التدابير لتكون أمه وزوجته وأبناؤه في مأمن من الأذى » .

وماتت زوجة دارا في الأسر ، فثار ملك الفرس ، واعتزم مهاجمة عدوه ..

[وإذا أخذنا برواية بعض الرومانسيين من القصاصين والمؤرخين .. نرى أن الإسكندر كان يعد العدة لاحتواء دارا واتخاذه صديقا (أو متحالفا معه) ليحظى بقلب ابنته استاتيرا التي أحبها من كل قلبه .. إلا أن الصبية الفاتنة أبت الإذعان لرغبته التي ملكت عليه حياته .. ورفضت بإصرار وعناد أن تصبح موضوع مساومة بين الفرس والمقدونيين ، ولذلك نرى بعض المؤرخين يقول على لسان الإسكندر بعد أن دانت له بلاد الفرس وأصبحت آسيا كلها بين يديه : لقد أحبني جميع الناس واحترموني لأنني القائد المنتصر .. ولكن ، لِمَ لَمْ تحبني هي ؟ » .

* * نعود إلى دارا ، وقد انتهز فرصة تقسيم جيش الإسكندر إلى فرق موزعة على العديد من الممالك : بعضها لفتح سوريا وفينيقيا ، وأخرى لفتح مصر ، وثالثة لتأمين الطرق المترامية الأطراف .. وجمع الملك الفارسي جيوشه وصمم على لقاء جديد حاسم مع الإسكندر .. وكان مشدودا دائما بعائلته المأسورة تحت رحمة عدوه .. فلم يصغ لنصح قواده له بالتريث .. وهم الذين اصطلوا بنار الغزاة المقدونيين مرات ومرات .. ولمَّا لم يفلحوا في إقناع ملكهم بالعدول عما عزم عليه ، دبروا مؤامرة للتخلص منه .. ففي أثناء الطريق ، وقبل أن يلتقي الجمعان ، هجم اثنان من قواد جيش الفـــرس على دارا ، هما : باسوس ، وتبرزان .. وأوثقاه بالأغلال وقتلا حرسه الخاص ، وجرّاه معهما أسيرا لكي يعود أدراجه ولا يُقدم على الانتحار أمام الإسكندر ! وعندما ذاعت هذه الحادثة في معسكرات جيش الفرس ،

وأصيب الجنود بالفزع والرعب من هول ما حدث لملكهم .. لم يجد باسوس وتبرزان أمامهما إلا أن اغتالا أسيرهما ، وتركا جثته فى مركبته وفرا هاربين ! وتشتت الجنود فارين إلى السهول والجبال .. وكان جيش الإسكندر على وشك أن يطبق على الفلول المتناثرة لولا أن وصل الخبر إليه ، فقصد إلى مركبة دارا .. وعندما نظر إلى جثته ، وقف خاشعاً أمامها فى أسى ، وأخذ يبكى كالطفل على خصمه العنيد .

وأدرك الإسكندر أن عرش الفرس أصبح ملكا له بلا منازع ، وأن آسيا بأسرها أصبحت خاضعة لسلطانه . وكتبت إليه أمه « أولمبياس » طالبة منه أن يواصل الزحف لفتح الهند .. وأن تشمل إمبراطوريته كل بلاد العالم ! .

... هذا هو القائد العجيب يستولى على سوريا وفينيقيا ، ومصر التى أنشأ عاصمتها الإسكندرية لكى تكون مركز اشعاع حضارى فى الشرق كما حلم بذلك من قبل .. وها قد دانت له بلاد الفرس كلها .. وفتحت أمامه الطريق إلى الهند .. بل لقد زحف على الهند وبلاد الأفغان .. وصارت إمبراطوريته هى كل أرض عرفها فى ذلك الزمان ! لقد وقف هذا القائد يوما بين قواده ومساعديه وقال لهم :

« يجب أن تندمج الشعوب كلها فى شعب واحد له دين واحد ولغة واحدة وأهداف موحدة .. فالبشرية كلها مجموعة من الإخوة يجب أن تعيش فى هناء وصفاء .. فلا حروب بعد اليوم ، ولا عداء ولا خصام ! » .

ومن عجب أن الإسكندر الأكبر الذى حقق كل هذه الانتصارات المذهلة ، والذى بهر العالم .. بل وامتلكه آنذاك .. مات فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .. وهو لم يكمل الثالثة والثلاثين من عمره ! وقد حقق ما حققه من هذه الفتوحات الأسطورية فى أقل من عشر سنوات من قيادته العبقرية المعجزة ! واستحق بذلك أن يصبح ملهما للمبدعين على مر العصور .



لنعد إلى الوراء كثيرا أو قليلا .. إلى عصور الإمبراطوريات القديمة أو إلى الحرب الحديثة فى أوائل القرن العشرين .. نجد أن الخيل كانت عماد الفتوحات والحرب والنزال .. كما نجد أن الغالبية العظمى من فنانى التاريخ العظام أو من باقى الفنانين الموهوبين ــ شعراء أو رسامين أو نحاتين أو مزخرفين ــ قد تناولوا هذا المخلوق الجميل فى إبداعاتهم عندما يعالجون موضوعات الحرب والبطولة . وإذا كان الحصان يحتل هذه المكانة الوجدانية فى نفوس الفنانين فى



شتى أنحاء العالم ، فما بالكم بأوطاننا وتراثنا العربى ملاحمه وحروبه التى اتسمت بالفروسية والبطولات الجماعية والفردية من فوق صهوة الجواد العربى الأصيل .

والحصان العربى هو أجمل خيول الدنيا .. يمتاز بتناسق الأعضاء والرشاقة وخفة الحركة التى تبهر العقول .. إذا جرى ، خيل إليك أنه يسبح أو يطير !

ومما قاله المتنبى فى وصف الحصان العربى :

أعز مكان فى الدنا سرج سابح
وخير جليس فى الزمان كتاب

وقد وصفه أحدهم إذا اندفع يعدو بقوله :

إنه يسبح ولا يعدو .. يتحرك فى خفة وأناقة ورشاقة لا يدانيه فيها مخلوق على سطح الأرض .. فهو أجمل مخلوقات الله ! لأن الله سبحانه صاغه على هيئة من الجمال والتناسب لا تدانى ، وجمع فيه بين الرقة والصلابة على نحو يدعو إلى العجب والإعجاب ، فإنك تراه بقوائمه الرفيعة فيخيل إليك أنه هش سريع الانكسار ، ولكن عظامه أصلب عظام فى الحيوانات جميعها ، ولذلك فهو فى عدوه يضرب الأرض مختالا واثقا فتحسبه يطير طيرانا .. وليس فى الدنيا منظر حيوان أبهى من حصان عربى تحت فارس ماهر .. إنهما يتحركان كمخلوق واحد ، لأن الحصان العربى مخلوق شديد الحساسية دقيق الفهم مفرط الذكاء .. ومن أغرب الملاحظات أن الحصان العربى يتملكه الخيلاء إذا ما امتطته فارسة حسناء .. هنا يبدع فى حركته .. ويتهادى فى أناقة وكأن الدنيا لا تسعه !

ويحظى الحصان العربى بإعجاب أهل الأرض جميعا ، فلا يخلو بلد من بلاد العالم من جمعية للحصان العربى ، وفى أمريكا تنتشر هذه الجمعيات بشكل مثير وأكبرها هناك توجد فى كاليفورنيا يرأسها رجل من أكبر هواة الخيول العربية يسمى « جيرالد دونوجهيو » ويملك أعضاء هذه الجمعية من الجياد العربية ما لا يحصى .

وجدير بالذكر أن أحسن أنواع الخيول العربية كان يربى فى مصر إلى عهد قريب ، حيث كانت مصر أكبر مصدر للخيول العربية الأصيلة .. وقد اهتم كثير من الشخصيات العربية السعودية مؤخرا بتربية واقتناء الخيل منذ نحو ثلاثين عاما .. وبفضلهم عادت الجزيرة العربية مركزا من أكبر مراكز الجياد العربية الأصيلة .

وبين العربى وحصانه ألفة ومودة ومحبة وفهم متبادل .. وقد ورد عن رسول الله ﷺ إنه كان يمسح رقبة الحصان بكمه .

ويقول ما معناه : المجد تحت صهوات الخيل .. أما غزوات المسلمين فى فتح مكة وفى معركة حنين وفى حرب الطائف وفى غزوة تبوك وغيرها ، فقد كان فرسان المسلمين يحسنون اختيار جيادهم التى كتب الله النصر للمسلمين على صهواتها .

وإذا استعرضنا الفتوحات الإسلامية .. فلا يمكن أن نتصورها دون حصان .

وعندما قامت دولة الإسلام ، دهش الفرس والروم من التحام الفارس العربى وفرسه التحاما أصبحا معه شيئا واحدا ، وكان الفرس يحسبون أنفسهم أمهر الناس فى ركوب الخيل ، فإذا بالمائة منهم يفرون أمام عشرة من فرسان العرب ، لأن خيل الفرس كانت ثقيلة بطيئة الحركة ، وكان طعامها دسما وفيرا ، أما خيل العرب فكانت ضامرة خفيفة تعيش على حفنات من التمر وبعض الحشائش الجافة . وعندما التقى فرسان الروم بفرسان العرب فى معركة كبرى هى اليرموك ، وقف الروم جامدين فى مواضعهم وهم على ظهور خيولهم التى وجفت من سرعة انقضاض الخيول العربية واختراق الصفوف وكأنها سهام مارقة !

ثم إن الحصان العربى يستطيع أن يقاتل ساعات متوالية دون أن تهبط قواه ، وقد ظلت خيول العرب تقاتل فى معركة « اليرموك » من مطلع الشمس حتى صلاة العصر ..

وهكذا رأينا أن العرب — وهم على ظهور جيادهم — فتحوا المغرب والأندلس ومنها إلى جنوب فرنسا .. ودالت لهم الممالك والأمصار .. وكان من عوامل النصر — بعد الإيمان ورسوخ العقيدة — خيولهم المباركة .

وإذا كان الحصان العربى سيد الخيول .. إلا أن الجياد جميعها تمتاز بالجمال والتسامى وقوة الاحتمال .. وتتعدد فصائلها وأشكالها وألوانها متأقلمة بذلك مع عوامل البيئة



قالوا عن الحصان :

★ ★ قال عليه الصلاة والسلام : (الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة) .

وقال أيضا : (ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها، ولاتقلدوها الأوتار. وعليكم بكل كميت أغر محجل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجل) .

وفى حديث آخر : (عليكم بإناث الخيل فإن بطونها كنز ، وظهورها حرز ، وأصحابها معانون عليها) .

★ ★ قال ابن رشيق فى معرض حديثه عن العرب الأقدمين :

... وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج. (من كتاب «العمدة» فى القرن الحادى عشر)

★ ★ ولما عرض الله الخلق على آدم عليه السلام وسماهم، قال الله تعالى: «يا آدم اختر من خلقى ما أحببت»، فاختار الفرس. فأوحى الله إليه اخترت عزك وعز ولدك باقيا فيهم ما بقوا أبدا، وبركتى عليك وعليهم.

(من مخطوطة «كتاب الفروسية وشيات الخيل» لأبى يوسف يعقوب)

★ ★ يطفر الحصان بعيدا بعيدا فى أعماق نفوسنا الخفية .. إنه رمز الفحولة وقوة الحركة . د . هـ . لورنس

★ ★ قال أبو عبيدة : يستدل على عتاقة الفرس .. برقة جحافله ، وأرنبته ، وسعة منخريه ، وعرى نواهقه ، ودقة حقويه ، وظهر فى أعالى أذنيه ، ورقة سالفتيه وأديمه ، ولين شعره ؛ وأبين من ذلك كله لين شكير ناصيته وعرفه .

★ ★ قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفراء بالمتنزل
له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل









التى تنشأ وسطها ومع الأغراض التى تستخدم فيها .

ولما كان الفنانون ذوى أعين ثاقبة تراقب وتتأمل وتستوعب وتبحث عن مكامن الجمال فى الكائنات من حولها .. وجدنا أن الحصان يستولى على اهتمامات المبدعين مهما اختلفت وسائل تعبيرهم .. وصار للمعارك الكبرى فنانون يخلدونها أدبا وشعرا ورسما .. يتألق فيها الحصان بصفة خاصة كمادة جمالية طيعة بين أنامل الفنان الملهمة !

وكان العظماء وقادة الحروب يطلبون دائما أن تسجل صورهم وهم على صهوة جيادهم .. وقد خلف لنا العصر الوسيط وما بعده حتى أوائل القرن العشرين آيات فنية من إبداعات الآلاف من الفنانين الذين برعوا فى رسم الفرسان .. وفى عهد نابليون ، تسابق الفنانون الكبار من أمثال « جيريكو » ، و« دافيد » ، و« جرو » وغيرهم فى رسم نابليون وضباطه على خيولهم ، وسجلوا تلاحم الفرسان وأجواء الكر والفر بين الجياد المتقابلة .. وتضم « قاعة التاريخ » بمتحف فرساى « بانوراما » فنية لهذه المعارك الشهيرة التى تبدو الخيول فيها بمعالجات فنية مثيرة !

أما فى الحرب العالمية الأولى ، وقبل تقدم الآليات الميكانيكية ، فقد كانت الخيول تعد عاملا حاسما فى تفوق القوات المتصارعة ، ليس فى النزال فقط ، ولكن فى حمل المدافع ومختلف الأسلحة الثقيلة .. وكان قواد تلك المعارك يحرصون فى مرحلة الإعداد للحرب على توفير أحسن الجياد ، كما يحرص القادة ـــ فى أيامنا هذه ـــ على توفير الدبابات والصواريخ والمدافع الثقيلة .

وفى أوروبا آنذاك ، كانت هناك ظاهرة فنية رائعة هى تآزر الفن والحرب فى جميع الصحف والمنشورات وكافة المطبوعات التى اعتبرت ـــ فى حد ذاتها ـــ سلاحا إعلاميا لا يقل عن طلقات البنادق ، وعلى سبيل المثال ، فقد حشدت مجلتا : L'illustration فى فرنسا ـــ و Illustrated London News فى بريطانيا ، جيشا من الفنانين الموهوبين يتابعون أحداث الحرب ساعة بساعة .. وسرعان ما يتحول الجنود والمعارك والأحداث الساخنة إلى أعمال فنية رائعة تأخذ طريقها على الفور إلى المطابع لتنتشر فى أرجاء العالم بأسره دون إبطاء .

وعندما أسترجع مقتنياتى من هذه المطبوعات التى أحرص على أن أزود بها مكتبتى الشخصية ـــ وقد جمعت جزءا كبيرا منها بشتى الوسائل ـــ أتبين من خلالها ولعلهم برسم هذا المخلوق الرائع .. بطل تلك المعارك .. ألا وهو الحصان !

وكنت أستطيع فى يسر وسهولة أن أورد هنا عشرات بل مئات من اللوحات التى تتغنى بالخيل وتعايش حركتها الدائبة فى الحروب ، لولا ضيق المجال .

وإذا كانت الخيل قد استحوذت على إعجاب الفنانين الغربيين وجعلوا منها رمزا للتفوق والنصر والجمال .. فما أحرانا ـــ نحن المسلمين ـــ بأن نعتز بها أيما اعتزاز ، وقد أمر الله رسوله باتخاذها ورباطها لجهاد عدوه ، قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾





كنوزنا الشرقية ...

وطالما أننا قد ألقينا بعض الأضواء على الحصان العربى ومآثره فى الكر والفر ، فلا شك أن أجمل اللوحات التى تغنت بالخيل والفروسية على أرضنا العربية ، هى تلك اللوحات التى رسمها الفنانون المستشرقون ، بعد أن بهرتهم تقاليدنا وطبيعتنا وأجواؤنا الشرقية المثيرة .. فسجلوا أروع إبداعاتهم من وحيها لتبقى خالدة على مر السنين ، شاهدة بأمجاد الماضى وعراقة الأصالة والتراث وكنوز التاريخ ومكامن الجمال بين ظهرانينا .

وها نحن أولاء نشاهد اليوم حركة نشطة فى عواصم الغرب هى مزيج من أسواق المال وأسواق الفن ، اختلط فيها جمع غفير من المضاربين من الهواة وجامعى التحف والمغامرين والباحثين عن الثراء السريع ، من خلال تلك الأسواق الرائجة لهذه اللوحات الشرقية التى تضاعفت أثمانها فى السنوات الأخيرة حتى وصلت إلى أرقام فلكية غير معقولة . وبذلك أفرد تاريخ الفن صفحاته من جديد ، ليسطر على الملأ قصة مدرسة فنية رومانسية من وحى الشرق تضاهى أروع مدارس الفن عبر قرون التاريخ .

.. وبعيدا عن الحروب وساحات المعارك والأحداث الساخنة ، لنتجول سوياً فى ربوع شرقنا العربى مع الفنانين الغربيين الذى شدوا رحالهم إلينا فى القرنين الماضيين ، وقد داعبت خيالاتهم أطياف السحر وغموض الأسرار ، وأستار القصور وأجنحة الحريم ، وأسفار السندباد ، وغلالات العذارى ، وحكايات شهر زاد .



فى عام ١٨٥٨ كتب « كارل هاج » — وهو أحد الفنانين الألمان الذين بهرهم سحر الشرق واستولت كنوزه على مشاعرهم — كتب يقول لفنانى عصره :

« أرجو أن يعلم هؤلاء الذين يبحثون عن مادة مثيرة يرسمونها ، أن يتوجهوا إلى القاهرة .. كما يجب أن يعلموا أن هناك « قاهرة » واحدة فى العالم .. وأن على الفنانين أن يروها ، وإنى واثق من الحصيلة الرائعة التى سيعودون بها .. إن كنوز الإلهام تكمن هناك على ضفاف النيل .. وهضاب الأهرام . وبين قلاعها ومساجدها ، وفى شوارعها وأزقتها ذوات الطابع الشعبى العربى الأصيل ! وإن خيال الفنان سيختلط بهذا الواقع المثير حقا ، ليجعل تلك الصور النابضة بالحياة أسطورة فنية شرقية خالدة » !

ولكن .. ما هى الحكاية ؟ حكاية الاستشراق الفنى ذى الطابع الشرقى العربى الإسلامى الذى غزا إلهامات الفنانين الأوربيين .. فتسابقوا إلى مكامن الجمال على أرضنا الطيبة .؟

يرجع الاهتمام بمثل هذه اللوحات ذات السمات العربية فى فنون الغربيين بوجه عام إلى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ، فبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وانتقال الإمبراطورية الرومانية إلى إيطاليا ، بلغ هذا التأثير الشرقى مداه فى عصر النهضة الإيطالى الذى حمل ملامح شرقية لا تخطئها العين ، بفعل التيارات الشرقية التى كانت تتمركز فى بيزنطة . وسرعان



ما انتقلت تلك الملامح إلى بقية أنحاء القارة الأوربية .. وتوالت فى أعقابها المدارس الفنية الرائعة التى اتخذت من العاصمة الفرنسية « باريس » محورا لإبداعاتها . وعرف تاريخ الفن أعلاما من الأفذاذ مثل « ديلاكروا » و« جود فردريك » و« لويس » .. وغيرهم ، ممن جمع بينهم ولعهم الشديد بسحر الشرق — والشرق العربى بوجه خاص — فانعكس هذا التأثير فى رحلاتهم الدائمة إلى بلادنا العربية ، ونهلوا من تراثنا وكنوزنا الإسلامية وطابعنا الشرقى الأصيل ، وأفرزوا المئات من الأعمال الفنية الخالدة ذات الطابع المميز الذى يسجل عاداتنا وحياتنا وآثارنا التاريخية الرائعة ! وقد عرف هذا الأسلوب عالميا باسم Orientalism . كما عرف الفنانون الذين انتهجوا هذا الطابع الشرقى باسم The Orientalists .

ويذكر تاريخ الفن أن الفنان العالمى الشهير « رمبرانت » وهو من قمم الإبداع فى هولاندا والشمال الأوربى عامة ، كان أول فنان كبير يقتبس فتنة الشرق فى أعماله ، فمعالجته للأنسجة والبسط والمعمار العربى ، قد ألهمت كثيرا من الفنانين من بعده ليسيروا فى نفس الاتجاه ..

وكان لنشر كتاب « ألف ليلة وليلة » و« رباعيات الخيام » وغيرهما من كتب التراث الشرقى .. المفعول السحرى فى الكشف عن طاقات فنية مذهلة ألهبت مشاعر الفنانين الأوربيين واستولت على وجدانهم ، فأطلقوا جموح خيالهم وأحلامهم فى تصور أجنحة الحريم والمغامرات الأسطورية وخفايا البحار وعوالم الجن والأسحار ! كما يجب ألا ننسى تأثيرات أخرى نشأت عن الرحلات الاستكشافية والحروب الصليبية التى كانت تستمر لعشرات من السنين بين ظهرانينا ، وما يتناقله الغزاة عن انطباعاتهم ومغامراتهم فى ربوع بلادنا .. كل هذا جعل من الأوربيين — ولا سيما الفنانين منهم — نفوسا شاعرية تواقة إلى مشاهدة الأجواء الشرقية المفعمة بالأسرار والأسحار والآثار والجمال الكامن خلف الأسوار والأستار !

وألبسوا الواقع ثوبا من الشاعرية

وهكذا بدأ النزوح الأوربى إلى بلادنا .. وكان لمصر — والقاهرة بصفة خاصة — النصيب الأوفر من هذه الرحلات لأسباب كثيرة « سياسية وحضارية وجغرافية وتراثية » ، وألبس الفنانون واقعنا الشرقى أثوابا فضفاضة من الخيال الخصيب السابح فى أطياف الجمال والشاعرية .. وطاب لهم المقام بين كنوزنا وإلهاماتها الفنية المثيرة .. وبذلك ، انتشر طابع الاستشراق الفنى منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم ! ولعل الحملة الفرنسية الشهيرة على مصر والشام .. وأحلام نابليون بونابرت فى الاستيلاء على هذه الكنوز الشاسعة ، كان لها أبلغ الأثر فى أن تصبح القاهرة بؤرة الإشعاع ومحور هذا النشاط الفنى العالمى . فعندما وفد الغزاة الفرنسيون فى حملتهم على مصر ، اصطحبوا معهم « جيشا آخر » من الفنانين والعلماء .. الذين عكفوا على دراسة واستيعاب وتسجيل كل ما تقع عليه أعينهم ، وأصدروا العديد من المجلدات والمراجع القيمة عن طابع الحياة المصرية بعاداتها وتقاليدها وآثارها .. وحتى الأشجار والأزهار والثمار والحيوانات والطيور والحشرات ..!

وتعتبر موسوعة « وصف مصر » Describtion d'Egypte وملحقاتها التخصصية من أهم المراجع العالمية .. بل يرجح كثير من المؤرخين أنها أهم المراجع العلمية والفنية لدولة عربية عريقة كمصر .. فى تاريخ البحث العلمى قاطبة !

وهكذا رأينا أن فنانى الهجمة العسكرية — بعد أن رأوا بلادنا — قد تحولوا إلى مبدعين ودعاة متحمسين لحضارة الشرق العربى بعد أن شغفوا بها إلى درجة الهيام ، بل آثر كثير منهم البقاء فى مصر كوطن ثان لهم .. ومن عجب أن بعضهم قد جعلها الوطن الأول والأخير ، بعد أن تمصروا واختلطوا بأبناء الشعب .



ومن هذا المنطلق تكونت النواة الأولى للنهضة الفنية المصرية المعاصرة ! تلك التى تمخضت عن إقامة المراسم الخاصة ، ثم المراسم الحرة ، حيث غرست حب الفن والتراث فى نفوس الآلاف من هواة الفن .. وأثمرت هذه الحركة الرائعة فى النهاية،افتتاح أول مدرسة للفنون الجميلة فى القاهرة عام ١٩٠٨ .. تلك المدرسة التى كانت باكورة المعاهد والأكاديميات الفنية المنتشرة الآن فى عالمنا العربى الكبير !

البصمات الشرقية على جبين الغرب

نعود إلى فن « الأورياناليزم » Orientalism الذى أصبح مدرسة قائمة مرموقة تتسامى على باقى المدارس الفنية فى الوقت الحاضر ، لتطل من نافذتنا الشرقية على أرجاء المعمورة .. نجد أن بصمات هذه النزعة الرائعة مطبوعة على متاحف العالم وقصوره ومجمعات تراثه .. كما نجد هذه البصمات الإبداعية على جدران الأكاديمية الملكية فى لندن ، كما فى صالونات باريس وروما وأمستردام وباقى العواصم الغربية .. نراها زاخرة بمناظر السلاطين والجوارى وفاتنات القصور ، وقد رسمها الفنانون فى أجواء مثيرة تعبق بالبخور وغلالات السحر والغموض والأستار المخملية العربية المزركشة .. ولوحات أخرى تصور معابد النيل بزخارفها المذهبة وأعمدتها السامقة المهيبة .. واحتفالات الفراعنة ومواكب التقديس ومهرجانات عروس النيل وغيرها من المناظر التاريخية والقصص والأساطير التى اختلطت بين أطياف خيالات الفنان وأحلامه ونبضات التاريخ وعراقته وأمجاده !

وكانت هذه الإلهامات المبدعة ، بمثابة البسمة الدافئة المضيئة على وجه أوروبا البارد الكئيب !

وما إن حل القرن التاسع عشر ، حتى زاد اهتمام الرسامين الغربيين ببلادنا وتوافدوا تباعا إلى مناهلنا السائغة ، وقد اكتسبت لوحاتهم طابع الرومانسية المثالية ، كما تخصص بعض الفنانين فى رسم الصحراء والواحات ورحلات القنص .. ومنهم من تميز بروعة الأداء فى تصوير العمارة الإسلامية وزخارفها المعجزة ، والأسواق العربية والاحتفالات القومية والدينية والحرف اليدوية المتوارثة ..

ويمكن تعريف فن المستشرقين أو المستعربين بأنه ذلك العمل من إنتاج الفنانين الأوربيين الذين قاموا بتجسيد روح الشرق فى إبداعهم .

من هذه الخلفية التاريخية التى وجدتها ضرورية كمقدمة لفهم واستيعاب هذا النوع من الأعمال الفنية ، نستطيع معا أن نتدارس قيمة « الأورياناليزم » التراثية والفنية فى عالمنا المعاصر .. ولماذا تتهافت المتاحف وقاعات العرض على هذه اللوحات الشرقية .. حتى إن مؤسسات كبيرة فى عواصم الغرب ، تكاد أن تكون متخصصة فى شراء وبيع واقتناء مثل هذه الأعمال دون غيرها من روائع الإبداع العالمى الأخرى ..

وليس غريبا أن تتصاعد أثمانها إلى عنان السماء .. ويتسابق أثرياؤنا العرب على شرائها .. وربما كانت الدوافع خيرة للمحافظة على قطع من تاريخنا العريق .. أو لولع وشغف بهذا الفن ذى الطابع العربى الإسلامى الجميل ..

القاهرة فى إبداعهم

وكما كانت الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، حدثا ذا أهمية بالغة وبعيد المدى ، كان لها نفس الأثر فى الانبهار والإعجاب بأجوائنا وتراثنا التراثى فى نفوس الغزاة وسائر الشعوب الأوربية ، ولا تقل الإشعاعات الحضارية لهذه الحملة عن أثر حملة الإسكندر المقدونى على الشرق الأوسط قبل ذلك بنحو اثنين وعشرين قرنا . فإلى جانب الأهداف السياسية والعسكرية التى كان يتوخاها نابليون بونابرت من تلك الحملة ، فقد كانت هناك أهداف فنية وعلمية أخرى وضع التخطيط لها بدقة وبشكل يدعو إلى الإعجاب والتقدير العالمى .. ورأينا كيف أن فريق العلماء والفنانين من ذوى المستوى الرفيع الذين استهوتهم وداعبت أحلامهم سيرة الشرق وأحلام المغامرات.. وسحر ألف ليلة وليلة وكنوز سليمان وفتنة بلقيس وكليوباترا وروائع الفاطميين وقلاع صلاح الدين وحصون



المماليك .. رأيناهم وقد وطئت أقدامهم أرض مصر ، مالبثوا أن سلبت ألبابهم مناظر الآثار وخمائل النيل ومهرجانات الاحتفالات الشعبية وطابع الحياة التقليدية المتوارثة .. وسرعان ما انفصلوا فكريا ووجدانيا عن منطق الكر والفر وحشود المتحاربين وضجيج المعارك .. وانطلقوا فى مسيرتهم الفنية بين مكامن الإثارة والجمال الطبيعى ، بل وتغلغلوا فى الحيـاة الخاصة ذات الملامح العربية الخالصة لوجهاء المصريين وزعمائهم .. وأسفرت هذه المعايشة التأملية عن الحدث الفنى العلمى الكبير .. وهو موسوعة « وصف مصر » ذات الشهرة العالمية .. وتتكون من أربعة عشر مجلدا تحتوى على كم هائل من المعلومات والإحصاءات مبينة باللوحات المرسومة ببراعة فائقة ! كما خرجوا على العالم بنحو ثمانية أطالس ضخمة أودع فيها الفنانون كل ما وقعت عليه أبصارهـم .. وتناولها العلماء بالشرح والتحليل الدقيق ، ولم يتركوا صغيرة أو كبيرة على أرض مصر إلا وسجلوها باللوحة والكلمة : التاريخ والآثار والحرف والأزياء والعادات والتقاليد والحيوانات والطيور والأسماك والحشرات والنباتات وحتى الأزهار وأنواع الثمار والحشائش والأعشاب !

مراجع الفن العربى الإسلامى

وكان طبيعيا أن تلفت هذه الموسوعات الجامعة انتباه الباحثين والفنانين الأوروبيين وتلهب خيالاتهم وأحلامهم .. وبخاصة فى ميادين الفنون والعمارة .. فتوالت المؤلفات التى هى مزيج رفيع المستوى بين العلم والفن .. وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ المؤلف الذى نشره « بريس دافن » تحت اسم « الفن العربى » فى عام ١٨٨٧ ، وسبقه « باسكال كوست » عام ١٨٣٩ فنشر على العالم موسوعته القيمة عن الآثار العربية الإسلامية فى القاهرة ، وكذلك خرج « بورجوان » بمؤلفه الرائع : الفنون العربية الإسلامية .

ومن أمهات المراجع الجادة كتاب فريد نشره الكاتب الفنان الإنجليزى « إدوارد لين » عام ١٨٦٠ تحت عنوان « عادات وتقاليد المصريين » وقد تسرب هذا العبقرى إلى دخيلة نفوس المصريين وعايش مجتمعهم بحب وصدق وتفاعل .. وسجل كل هذا بشكل بالغ الدقة .. حتى إنه أفسح أبوابا كاملة لنداءات الباعة المتجولين .. بل ولحن هذه النداءات بالنوتة الموسيقية ، ورسم بريشته المبدعة كل المظاهر التى قد لا تخطر على بال المصريين أنفسهم ، ولا شك أن الإنجليز قد أفادوا كثيرا من هذه الموسوعة الشاملة ودرسوا معلوماتها بدقة عندما أقدموا على احتلال مصر سياسيا ثم عسكريا بعد ذلك !

وأخذت تزداد عجلة نشر المؤلفات باللوحة المرسومة والمعلومة المحققة عن بلادنا العربية منذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، لأغراض فنية وعلمية كما أسلفنا ، ولأهداف استعمارية كما رأينا فى منطقة الشرق الأوسط وبلاد المغرب العربى .. فوضع العالمان الفنانان « برونو » و« رومازفسكى » كتابهما الوثائقى الهام عن منطقـة الأردن والبتـراء ، وكان ذلك عام ١٩٠٩ ، وكذلك ظهر المجلد الفنى الرائع عن « آثار شبه الجزيرة العربية ومدائن صالح » ، وقد تضافر فى رسمه وكتابته اثنان من الأفذاذ وهما « جاوسن » و« سافينياك » . كما نشر « فاتزنجر » و« فولتزنجر » موسوعتهما الشهيرة عن دمشق ، وهى مقسمة إلى جزأين : أحدهما قبل الإسلام ونشر عام ١٩٢٤ ، والثانى بعد الإسلام وقد صدر بعد ذلك بأعوام قليلة ..

ولا يتسع المجال للذكر المزيد عن هؤلاء الفنانين الباحثين العلماء .. وهم كثيرون ، وقد نأتى بسيرهم مفصلة فى كتابات قادمة بإذن الله ..

كانوا قادة للفكر وهبوا أنفسهم لخدمة المعرفة الإنسانية ، وكان من حسن حظنا أن ملكت بلادنا وكنوزنا التراثية عليهم مشاعرهم ووجدانهم .. فسجلوا حضارتنا العريقة بدافع الرغبة فى المعرفة ومتعة البحث وإشباع ملكاتهم الفنية وإلهاماتهم العبقرية !



وصارت الكلمة كلمتهم

وكان طبيعيا أن تلعب هذه المراجع دوراً رئيسيا فى الإحاطة بأسرار بلادنا وطباع أهلها ، مما ساعد الحلفاء الغربيين على الانتصار وهزيمة الدولة العثمانية وتقطيع أوصالها .. ثم توزيع أقطارنا التى كانت خاضعة للعثمانيين على الدول المتحالفة المنتصرة ! وعندما استتب لهم الأمر ، وأحكموا قبضتهم على مقدراتنا .. أصبحت الكلمة كلمتهم .. وحتى « المعلومة » التى تتناول تاريخنا وتراثنا وقضايانا المعاصرة ، صارت من بنات أفكارهم .. فهى الحقيقة المدونة .. بل المجسدة باللوحة تكاد تنبض بالحياة ! وظهر من هذا المنطلق رعيل من المستعمرين الذين تخصصوا فى فنوننا الإسلامية من أمثال « كريسويل » الذى أصبح فى الثلاثينات من هذا القرن ، مرجعا لا يبارى فى جميع أنحاء العالم فى كل مايتعلق بشئون الفن والعمارة الإسلامية ! حتى إنه كلف فى عام ١٩٣٣ بإنشاء « معهد الآثار الإسلامية » بالقاهرة . وتتلمذ على يديه معظم المهتمين بالفن العربى والعمارة الإسلامية فى مصر والوطن العربى الكبير ! وما كان كريسويل إلا مهندسا فى سلاح المهندسين البريطانى ضمن القوات المحاربة فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى .. ورحل بعدها إلى مصر .. وولع ولعا شديدا بكنوز الآثار الإسلامية .. فتخصص فى البحث فيها والكتابة عن الفن الإسلامى بآفاقه الرحيبة .. وصارت مؤلفاته مرجعا أساسيا حتى يومنا هذا .

فلنبحث معا عن هذه المراجع

ألم يراودك — عزيزى القارئ — سؤال يلح على خاطرك وأنت تقرأ معى هذه المعلومات المثيرة وهو : أين هذه المراجع والموسوعات الفنية اليوم ؟! إنها موجودة ولا شك .. ولكن .. أين ؟ فى مكتباتهم ودور وثائقهم !!

واليوم نتساءل : لماذا لا تكون هذه الثروة الفنية العلمية بين أيدينا نحن أصحاب التاريخ والتراث ؟ ولماذا لا تكون فى متناول الباحثين العرب وطلاب الفنون والتاريخ .. بل وفى متناول النشء العربى والإسلامى فى كل مكان ؟

لقد كان أجدادنا الأوائل — منذ آلاف السنين — أبعد نظرا عندما سجلوا تاريخهم المجيد محفورا على جدران المعابد والمقابر وعلى الصخور الصلبة لكى تتحدى القرون وتظل أمام ناظرينا على الدوام ..

ولكننا فى عصور التكنولوجيا والإلكترون وانطلاق الذرة ، نفتقر — للأسف — إلى مثل هذه المراجع .. وأقول لكم — وأنا شاهد عيان على ما يحدث الآن — إننا نفتقر افتقارا شديدا للمراجع والوثائق عندما نجابه التزاما بنشر الكتب التاريخية أو الفنية فى أوطاننا العربية ! وليس أمامنا إلا أن نلجأ إلى دور الوثائق الأجنبية فى الخارج ، بحثا عن صورة أو معلومة هى حلقة من حلقات تاريخنا وجزء لا يتجزأ من تراثنا وكياننا !

وقد تأتى هذه المعلومة « أو الصورة » محرفة أومصقولة أو تلبس ثوبا غير ثوبها الأصيل ..

واعتقد أنه قد آن الأوان لإعادة طبع هذه المراجع الإسلامية العربية النادرة ، ونشرها على أوسع نطاق بتمويل عربى ، لتكون متداولة بشكل ميسر فى معاهدنا وجامعاتنا ومدارسنا ومكتباتنا .. إن ذلك العمل الخير لن يكلفنا ما لا نطيق .. حيث أصبحت وسائل الطباعة الحديثة متوفرة فى كل مكان فى بلادنا ، وطالما اشتد بى الطموح وناديت أكثر من مرة فى كتاباتى بوجوب إنشاء المتاحف المتخصصة لحفظ هذه الآثار الفنية التاريخية . بعد أن أصبحت تعج بها صالات المزادات فى كل مكان .. وهناك ظاهرة غريبة ملفتة للأنظار هى تسابق متاحف الغرب وهواة جمع التحف على شراء واقتناء الآثار العربية الإسلامية .. كل هذا .. ونحن نتفرج !

فلتكن صحوة عربية مضادة لاقتناص تحفنا التراثية من براثنهم .. ونحن نعلم أننا لا نشكو فقرا ولا عوزا .. ولكننا نعانى من أزمات فى الوعى .. أرجو أن تكون عارضة لا تلبث أن تزول .. لنكون أهلا للحضارة العريقة والأرض الخيرة الطيبة .. مهد الرسالات ومنطلق الإشعاعات الفكرية على مر العصور !



الهواية والغواية والسوق الرائجة

نعود إلى إبداعات الفنانين المستشرقين والمستعربين ، وإلى أعمالهم المستوحاة من كنوزنا الشرقية وإلهاماتها المثيرة لخيالاتهم ووجدانهم .. فنرى فى قاعات العرض الشهيرة المنتشرة فى ربوع العواصم الغربية ، أن الأبصار ترنو فى عجب وإعجاب لترى عالما فسيحا من روائع الفن العالمى : تحفا نادرة من التراث العربى الإسلامى ، لا ندرى كيف حصلوا عليها ، ولوحات فنية يتفاوت تقييمها حسب مكانة الفنان وعراقة المكان وبعد الزمان ، كما نجد كذلك لوحات أخرى مقلدة لا تخطئها العين الخبيرة المدربة بالرغم من أنها تتسم بالمهارة والحرفيـة ، وبين هذا وذاك نرى بعض المعروضات الهابطة التى لا تصل بحال من الأحوال إلى مرتبة الأعمال ذات القيمة الفنية ، وهكذا تعددت الأساليب ، واختلفت المواهب والقدرات ، ولكنها توحـدت فى مضامينها وموضوعاتها عن حياة الشرق العربى الإسلامى ، ماضيه وحاضره ، وقد أضفى الفنان على واقعه أطيافا من رؤاه وخيالاته الذاتية وإيحاءاته الملهمة ! وتتألق هذه المنتديات والقاعات الفنية ، حيث يقام فيها المهرجانات والمزادات ، وتعلو نبرات الدعاية فى شتى وسائل الإعلام عن تلك التحف الشرقية النادرة .. تباع وتشترى كأى سلعة أخرى .. وهم يدرون أنها قطع من تاريخنا سطوا عليها فى غفوة من الزمن وغفلة من الوعى عند أصحاب هذا التراث !

وكثيرا ما يغالى أصحاب القاعات ، فيعلنون عن معارض عربية خالصة ، وغالبا ما يختارون فصل السياحة الصيفية وقتا لإقامتها والترويج لها ، وزبائن هذه المعارض بطبيعة الحال هم من العرب الموسرين .. وقد يصحب بعضهم مجموعة من المستشارين والأدلاء والخبراء من المتخصصين فى مجال الفنون الجميلة .. وقد يتزاحم الحضور

على تحفة بعينها لتقفز فى دقائق معدودة إلى أضعاف ثمنها الحقيقى !

وفى خضم هذا السباق ، يهرع جامعو التحف والهواة والسماسرة والتجار إلى هذه المزادات ، وتدور لعبة الأرقام الخيالية ، وسعيد الحظ من يعرف كيف يقتنى تحفة ذات قيمة فنية أو أصالة تاريخية ، وفى هذه الحالة لا بد من الخبرة الواعية التى تلتقط الروائع من بين أكداس المعروضات التى اختلط فيها الزيف بالأصالة كأية سوق رائجة ..

وفى هذا المجال ظهر نوع من الاستثمار الراقى بتداول التحف الفنية فى الأسواق العالمية ، كما ظهرت طبقة من الوسطاء نالوا من الشهرة والثراء ما لم ينله الفنانون أنفسهم ، وأصبحت المؤسسات التى تخصصت فى لوحات المستشرقين والتحف الإسلامية أسواقا ذاع صيتها فى أرجاء المعمورة .. وتمركز معظمها فى العاصمة البريطانية « لندن » ، مثل « سوزبى » و« المتحف جاليرى » و« كريستى » و« الماجور أوكشان هاوس » .. وغيرها .

ودأبت هذه المؤسسات على إيفاد بعثات لها من الفنانين المعاصرين إلى الدول العربية ، تستلهم طبيعتها وتراثها ،



وتسجل مظاهر حياتها فى لوحات حديثة .. ثم يقيمون المعارض لهذه اللوحات ليبيعوها لنا فى المزادات كما أسلفنا .. وذلك بعد أن قل عدد اللوحات « القديمة » لأساطين الفن من الغربيين الذين تحدثنا عنهم تفصيلا فيما سبق .

ومن الغريب أنّ حكوماتنا غالبا ما تمول هذه البعثات مرتين ، الأولى كرم الضيافة واستضافتهم فى بلادنا ، والثانية بشراء إنتاجهم بكرم وسخاء لا يقدر عليه غيرنا .. وطالما تحدثت الصحافة البريطانية عن المكاسب التى تجنيها هذه المؤسسات الفنية !

وجوب الحذر

ويجدر بنا ــ والحال هذه ــ ألا نخلط بين الأعمال التسجيلية السريعة المنقولة عن صور فوتغرافية ، والتى هى أشبه بالتحقيقات الصحفية المصورة ، وبين الأعمال الفنية ذات المستوى الفنى الرفيع ، كتلك التى خلفها لنا فنانو القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وعلى أية حال ، فإنى أؤكد عن اقتناع كامل ، أن لدينا من فنانينا العرب من هم أكثر دراية وفهما لتراثنا وتقاليدنا .. بل وأكثر كفاءة فنية من معظم هؤلاء الفنانين الأجانب .. ولكن ما ينقصنا هو



تكوين مثل هذه المؤسسات التي تحتضن فنانينا وتستثمر كفاءاتهم ومواهبهم الأصيلة بتنظيم علمي مدروس .. وتقيم لهم المعارض في عواصمنا ، كما تكون أعمالهم نافذة عربية نطل منها على الغرب بإبداعاته المتألقة ومتاحفه ومعارضه العالمية !

وحبذا لو ألحقنا بسفاراتنا في عواصم الغرب ذات النشاطات الفنية مثل لندن وباريس وروما ، مستشارين فنيين تؤهلهم دراساتهم الأكاديمية وخبرتهم وممارساتهم الفنية لأن تكون لهم الكلمة في تقييم الأعمال الفنية قبل شرائها .. وذلك حتى نكون في مأمن من استغلال المزايدين والمغامرين في متاهات هذه الأسواق السياحية !

نحن العرب .. والمتاحف

وبعد أن استعرضنا قصة الاستشراق الفني ، وأمهات المراجع الفنية الإسلامية ، وأسواق التحف التراثية والأعمال الفنية التي تتناول ملامحنا العربية ماضيها وحاضرها ..

لا بد لي من كلمة أختتم بها هذه الجولة عن ندرة المتاحف ومجمعات التراث الإنساني في أقطارنا العربية .. إنه قصور لا عذر لنا فيه .. فالمتاحف هي الوجه الحضاري المضيء لأية دولة عريقة . فعندما نذكر فرنسا مثلا ، يتمثل في أذهاننا على الفور متحف اللوفر .. وإذا عرجنا على بريطانيا يقفز إلى ذاكرتنا المتحف البريطاني .. كما أن هناك متحف الأرميتاج بروسيا ، والبرادو بإسبانيا .. وهكذا ..

ونحن في عالمنا العربي ــ إذا استثنينا مصر نجد أن متاحفنا نادرة .. وإذا وجدت فمقتنياتها قليلة بالنسبة لما حوته أرضنا من آثار وما ينطوي عليه تاريخنا من تراث وأمجاد .. كما أن المعروضات لا تحظى بالعناية والإجلال بما تستحقه من احترام وتمجيد ..

ولا ضير أن نلقي شعاعا من ضوء على متحف اللوفر (أعظم متاحف الدنيا) علنا نجد في هذه العجالة معلومة تخدم موضوعنا الذي نحن بصدده ..

إن هذا المتحف الأسطورة يذهلنا أن نعرف كيف يختارون حراسه ، وأقول حراسه ولم أتطرق إلى مديرية أو أعضاء مجلس إدارته ، ويكفي أن نعرف أن هؤلاء الحراس يشترط فيهم أن يكونوا من أهل الفن ، ومعظمهم من خريجي كليات الفنون الجميلة . أما مديره وهو « المسيو أندريه بارو » فقد قضى عشرين سنة من عمره في العراق يعمل في الحفر والتنقيب عن آثار الكلدان وآشور وبابل ، ومن أجل هذا الاهتمام بفنون وآثار بلاد الرافدين على أرضنا العربية ، كان جديرا بأن يصبح مديرا لأشهر متاحف العالم .. اللوفر !

فلا عجب أن قصده الناس من مختلف أنحاء المعمورة ، لينهلوا من منابع آياته الفنية التي وصل عددها إلى نحو ثلاثين ألف تحفة .. هل تعلمون أن من بينها ٧٥٠٠ قطعة أثرية مصرية تُعرض في ست وعشرين قاعة من المتحف الكبير ؟!

ومن الطريف أنه ظهر في مصر اتجاه متحمس ينادي بإعادة هذه التحف الأثرية وغيرها من قطع الآثار الإسلامية إلى مصر ، وكان هذا شعورا وطنيا مخلصا ولا شك بصرف النظر عن إمكانية تحقيقه . إلا أن من يشاهد كيف تصان هذه التحف بين مظاهر الجلال والتبجيل ، وكيف يتحكم الذوق الرفيع في إبرازها في أحسن صورة ، وكيف تنشر عنها المطبوعات الأنيقة التي تتناولها بالبحث والتحقيق والتقييم .. ويرى كل هذا الإعزاز لها .. لا شك أنه يتراجع عن تلك النزعة الانفعالية التي تنادي باسترجاعها حيث إنه لا أمل ولا سبيل إلى تحقيقه على أرض الواقع !

ولكن قضيتنا الملحة الآن : أين نحن من هذا التراث ، ومسئوليتنا إزاء تاريخنا وأجيالنا القادمة ؟!

إن دعواتنا السابقة إلى وجوب جمع التراث الإسلامي والبحث عن الشتات المبعثر ، وإنشاء المتاحف ودور الوثائق .. لا بد أن تجد لها أذنا مصغية ونفوسا خيرة وبدا حانية واعية ، تحافظ على التراث والثقافة والفنون ، كما حافظت على الرسالة المقدسة .

رحلة الخيال والمعارك الأسطورية



ما رأيكم فى رحلة مع الفن والحرب .. نجول خلالها فى أجواء خيالية من صنع عبقرية فنان معاصر غطت شهرته آفاق الدنيا ؟

لقد اعتدنا ــ نحن الذين يعنون بالثقافة الفنية ــ أن نرتاد المتاحف ، وننقب عن العبقريات التاريخية لأساطين الفن بين تراكمات الروائع التراثية التى جادت بها قرائحهم على مر العصور .. حتى إننى لا أستطيع أن أتذكر أو أذكر أن فنانا عالميا شهيرا لم أكتب أو أحاضر عنه بعد ! وحتى القراء ، غالبا ما تختلط عليهم الأسماء والصور من كثرة ما ألفوها ، ويصبح من العسير أن يفرقوا بين هذا وذاك ، وبذلك يقل عنصر الإثارة فيما يقرأون أو يشاهدون . ولماذا نكون تقليديين .. فنبحث عن لوحات عالمية متحفية ، ونغرق بين صفحات تاريخ الفن ، نستخلص المعلومات ونلخصها ثم نتناول العمل الفنى بالوصف والتعليق والإشادة بعبقرية

الفنان والغوص فى حياته ومآثره الخالدة وكأنها (علب محفوظة) تفتقر إلى الجاذبية ؟!

والكتابة عن (الفن والحرب) تختلف بعض الشيء عن الحديث مثلا عن (روائع الفن العالمى) أو عن الثقافة الفنية المطلقة دون تحديد يضعها فى إطار ثقافى أو إعلامى معين .. لأن الهدف منها هو : معلومة تكون عاملا مساعدا لأهداف الكتاب وخطته المرسومة . ففى رأيى أن هذا الموضوع يجب ألا يكون تقليديًا أكاديميا ، ما دام الهدف واضحا .. ونضع فى اعتبارنا الحديث عن فلسفة الفن ذاته .. وعن طرافة الموضوع وإبراز القيم الجمالية والفكرية فى العمل الفنى . ولا بأس أن تكون اللمسة الجمالية هى الأساس .. وهى سيدة الموقف .

فإذا تحدثنا اليوم عن فنان يرسم المعارك وأجواء الحرب من رؤاه وعالمه الخاص .. وتحدثنا عن فلسفة النزوع إلى الخيال فى التجربة الإبداعية .. فسنكون بذلك قد حققنا غرضين هما : إبراز جانب فنى يخضع لمدرسة فكرية تعتمد على فلسفة وجدانية مثيرة ، والثانى : هو طرافة المعالجة الإعلامية لمادة فنية أخرجناها من القوالب التقليدية المتداولة وأوفت بغرضنا .

ولا أريد أن يستدرجنا الحديث إلى متاهات تصورية كأحلام الفنانين السيرياليين وننسى رحلتنا مع الفن والحرب فى أجواء الخيال التى تزخر بالغرابة والإثارة .. إنه عالم الفنان : فرانك فرازيتا .. وقد صدرت عنه عشرات المجلدات والكتب تحت عنوان : عالم فرانك فرازيتا العجيب . كما أعيد طبعها عدة مرات فى أوقات متقاربة وأصبحت المطبوعات التى تحمل اسم The Fantastic art of Frank Frazetta تغمر أرجاء العالم ! وقد حقق من المجد الفنى والثراء ما جعله حديث أمريكا والدنيا بأسرها ، وقد لعب الذكاء بجانب الموهبة دورا رئيسيا فى اختيار هذا المجال الفنى المثير .. الذى قلما ينافسه فيه غيره من فنانى العالم . ولذلك نعم بالجاه والشهرة والتألق .

ولعل روح العصر الحديث بمتطلباته المادية المعقدة ، تفرض على الفنان والعالم والباحث ، والمفكر بوجه عام أن يحيا حياة كريمة تتفق مع مكانته الخلاقة المبدعة ، وأن ينال حظه من متاع الدنيا .. لا كهدف فى حد ذاته ، ولكن ، كوسيلة للعطاء الدائب وهو فى مأمن من الضغوط القاسية التى يتسم بها طابع العصر .. وكل عصر .. فلكم حدثنا التاريخ عن الفنانين العظام .. وقد سحقتهم الظروف الصعبة .. وأسلموا الروح محترقين بنار العبقرية التى أضاءت بصائر العالم !

فليس غريبا أن رأينا « بيكاسو » ، كما نرى « سلفادور دالى » من أصحاب الملايين .. وأن نرى من الفنانين الجماهيريين : دافيد شيرد .. نورمان روكويل .. والتر مولينو .. وفناننا فرازيتا .. وغيرهم ، قد حرصوا كل الحرص على التألق فى وجدان العالم بفنهم وثرائهم فى الوقت ذاته ! وتتحدث المحافل الفنية بإعجاب عن فرانك فرازيتا لأنه استطاع أن يحقق ذاته فى أسلوب فريد ، وأن ينعم بالمجد والثراء الذى يستحقه وهو أهل له .

لقد كافح طويلا .. وشق طريقه فى الحياة الفنية بجهد وعرق وثقة جعلته مضرب الأمثال .. ولعل هذا العناء الذى جابهه فى مسيرته الشاقة الطويلة ، فرض عليه أن يجنح إلى عالم الخيال من شدة ما أضناه عالم الواقع .. فلجأ إلى الأساطير ينسج منها خياله عوالم خاصة غارقة فى الغرابة والإثارة .. ونشر أول مجلد فنى له عام ١٩٤٤ .. وعلى مدى الأربعين عاما الماضية ، لم يحد عن هذا الاتجاه حتى اليوم ..

وأشكاله تأخذ بالألباب وتبعث على الدهشة والتأمل والاستغراب .. وأبرز لوحاته هى ما يرسم فيها المحاربين من النماذج البشرية العملاقة التى تبدو كالأشباح الرهيبة وكأنها أتت لتوها من كوكب آخر ! ومعاركه الأسطورية هذه ، يبدو فيها الصراع المرير مع مخلوقات غريبة لم يألفها البشر .. ويصل فرانك القمة فى إبرازه للانفعالات والتعبيرات والحركات العنيفة .. ثم تلاحظ المهارة الفائقة فى معالجة نماذجه معالجة تكنيكية واعية ، تلتزم الأصول الفنية من حيث التكوين والتجسيد والتلوين والمضمون الانفعالى بحس درامى رائع . كما نلاحظ جليا إبراز العضلات بتناسق معجز ، وكأنه يستعرض عضلاته الفنية على غيره من الفنانين المعاصرين ! ناهيك عن تحريك جموع المحاربين فى





بناء وتكتيل فنى يوحى بالرهبة والانبهار .

وفى عام ١٩٦٤ صعد نجم « فرازيتا » إلى عنان السماء ، عندما ابتكر شخصية « طرزان » لمؤلفات « إدجار رايس » ، وجاءت الإحصاءات لتؤكد أن الملايين من هذه المطبوعات بكل لغات العالم ، يباع معظمها لا لمحتواها ولكن لاقتناء لوحات الفنان !

ومن الغريب أنه عندما أحس بالإرهاق ، قرر أن يرفع أثمان لوحاته إلى حد الأرقام المذهلة ، وكان الهدف أن تتاح له فرصة لالتقاط أنفاسه وأن ينعم بالهدوء بعض الشيء .. ولكنه فوجىء بغير ما توقع : ازدادت الطلبات على لوحاته لسنوات قادمة ! وهكذا جنون الشهرة والمال فى أمريكا ! وانهالت عليه الأموال من كل جانب ، وظهر اتجاه جديد بين كبار الناشرين ومحتكرى الأعمال الفنية : فقد تسابقوا إلى جمع لوحاته لكى يصدروا منها سلاسل فنية خاصة تتناول أعمال الفنان .. وملأوا العالم بهذه المجلدات التى تعرف باسم : عالم فرانك فرازيتا العجيب .

ويقف « فرانك » متصدرا حفلا مهيبا فى قاعة المهرجانات بأكاديمية الفنون الجميلة فى نيويورك ، محاطا بحشود الصفوة من رجالات الفن والفكر ، ليستمع إلى مدير الأكاديمية وهو يتلو شهادة التقدير والإكبار لفنه وعبقريته المبدعة ، تلك التى قررت الأكاديمية منحها له عرفانا بدوره فى إضافة ثراء جديد إلى عالم الفنون الجميلة .. وما زال الفنان حتى اليوم يوالى إبداعاته الرفيعة .. منطلقا إلى رحلته الأسطورية محلقا فى أطياف الخيال الفسيحة .



هذا هو (صالون باريس) السنوى فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .. قبلة الفنانين الكبار من شتى أنحاء المعمورة .. يتحكم فيه أساطين الأكاديمية الفرنسية من الكلاسيكيين التقليديين الذين يقفون بشراسة فى وجه أى حركة تحررية فى الفن ..

ولكن لكل فعل رد فعل .. وبقدر ما تكون عليه الأفعال .. تنعكس ردود أفعالها .. لذلك نرى المعركة وقد اشتدت بين الفريقين : فريق الكلاسيكيين .. وفريق المجددين الفرنسيين من الفنانين الشباب .. وتجمع حول هؤلاء الثائرين صفوة رائعة من المفكرين كان على رأسهم « جان جاك روسو » ينادى بالرجوع إلى الفطرة واستلهام الطبيعة .. وإزكاء روح التمرد على القوالب الفكرية المتوارثة ..

وظهرت أولى بشائر التحرر الفنى والتعبير بتلقائية ذاتية فى أوائل القرن التاسع عشر .. ورفع لواء هذه الحركة فناننا الشاب « تيودور جيريكو » .

وقد تجلت مواهب هذا الرسام وهو لم يزل فى الحادية والعشرين من عمره ، حينما قبلت إحدى لوحاته للعرض فى صالون عام ١٨١٢ .. والتف الفنانون والنقاد حول هذه اللوحة « وهى التى يراها القارئ على هذه الصفحات » والتى أسماها : فارس الحرس الإمبراطورى .. وكانت شيئا غريبا ومثيرا بالنسبة لما ألفه الناس فى المعارض والمتاحف .. وكان الجديد حقا هو الحركة والتعبير الصارخ والتورية الانفعالية الواضحة .. بينما كان متبعا قبل ذلك أن يلتزم الفنانون بالرزانة والوقار ومثالية الموضوع والتعبير ذى المسحة الإغريقية الميثولوجية .. فنرى الأشخاص وكأنهم تماثيل رشيقة خالية من الانفعال والحيوية .

والتف الفنانون الشباب حول زعيمهم « جيريكو » واختاروا للمذهبهم التعبيرى الجديد اسم « الرومانتيكية » أو الرومانثية . وكما عرفنا(*) كانت فكرة الكلاسيكيين التقليديين أن (يرتفع) الفن عن الحياة اليومية .. أو حسب قولهم : لا يجب أن يلوث الفن بالحياة الواقعية ! وجاءت حركة الرومانتيكية مناقضة تماما لذلك الاتجاه المثالى المتوارث عبر القرون فانغمسوا فى رسم المعارك والجو المحيط بهم والمفعم بالحروب والانفعال والأحداث الدرامية المثيرة .

ولجأ جيريكو إلى رسم فرسان الحرس الإمبراطورى وضباط وجنود نابليون .. وأغلب الظن أن لوحاته هذه كانت بمثابة استرضاء القمة لإحاطة نفسه وجماعته بنوع من الحماية لا سيما وقد بدأ حياته الفنية وسط أمواج المد الثورى الذى اجتاح الحياة الفرنسية والأوروبية عامة ، وقد برع فناننا بصفة خاصة فى تصوير خيول المحاربين .. وقد وجد فى رسم الحصان مجالا رحبا للتعبير عن الجمال والرشاقة والتفاعل والحركة والإثارة .. وهذه الصفات مجتمعة هى عناصر المعالجة التكنيكية عند الرومانتيكيين بوجه عام .

(*) الرومانتيكية [illegible] رومانتيكية مشتقة من كلمة (رومان Roman) ومعناها بالفرنسية قصة أو حكاية .. [illegible] تصوير المشاهد التراجيدية أو الدرامية المثيرة فاهتم كتاب أشد عنفا والانفعالات [illegible] [illegible]



كارثة أليمة

وحدث فى عام ١٨١٨ خطب مروع كان بمثابة كارثة أليمة هزت مشاعر الفرنسيين وأهاجت حفائظهم ؛ تلك هى حادثة السفينة « ميدوزا » التى كانت قد غرقت فى عرض المحيط بعد إقلاعها من أحد موانئ أفريقيا الغربية ، ففر منها الضباط على قوارب النجاة ، تاركين وراءهم أكثر من مائة بحار يصارعون الأمواج على طوف اصطنعوه لأنفسهم على عجل من بعض حطام السفينة .. وكرت الأسابيع ، فلقى معظم البحارة حتفهم من شدة الجوع والعطش أو من فرط الجنون .. وأخيرا ، لمحت إحدى السفن العابرة هذا الطوف .. فأسرعت إليه .. وأنقذت ما بقى من البحارة .. وكان عددهم خمسة عشر بحارا يوشكون على النزع الأخير !

وقد ألهبت هذه الواقعة مشاعر زعيم الرومانتيكيين « تيودور جيريكو Théodore Géricault » فصمم على تصويرها بكل ما انطوت عليه من هول وبشاعة .. وانتهى من لوحته الضخمة المثيرة بعد أن رسمها فى عام كامل ، وأسماها « طوف الميدوزا » . وقد أثارت هذه اللوحة البانورامية سخط النقاد وأساتذة الأكاديمية الفرنسية ، بدعوى بشاعتها وخلوها من تلك الصفات الكلاسيكية التى كانت — بصفة عامة — لم تزل تعتبر المثل الأعلى فى الفن ، أى : رصانة التعبير ، ومثالية الجمال ، وسمو المعانى !

.. ونلاحظ أن هذه العاصفة من النقد اللاذع والتجريح ، لم تظهر بهذا الشكل السافر فى لوحات جيريكو السابقة التى رسم فيها المعارك والضباط وفرسان الحرس الإمبراطورى .. لأن الفنان فى لوحاته تلك ، كان يحظى برضاء القمة العسكرية .. أما فى لوحة « طوف الميدوزا » ، فقد أتاحت لرجال الأكاديمية فرصة ذهبية لكى يضربوا ضربتهم الموجعة لا ضد جيريكو فحسب ، بل لحركة الرومانتيكيين قاطبة ! ولا سيما وقد أحسوا بعواصف التحرر تكاد تعصف بهم وتقتلع جذورهم ! وقد تحقق لهم ما أرادوا .. عندما أثارت هذه العاصفة الهوجاء من الاستنكار والتجريح حنق الفنان الشاب ، فوهنت قواه .. وتلاشت ثقته بنفسه ، وقرر ترك الفن ، بل ترك فرنسا كلها !!

وهاجر جيريكو إلى إنجلترا ، يهيم على وجهه متنقلا بين متاحفها وأحيائها الفنية .. ممتطيا جواده الذى أحبه ، وكان له الرفيق والصديق ومؤنس غربته ووحدته ..

ويشاء الله أن تكون نهايته من سقطة مميتة من فوق هذا الجواد نفسه ، وهو لم يزل فى الثالثة والثلاثين من عمره ! وكان ذلك فى عام ١٨٢٤ .

ومن عجب ، أن الحكومة الفرنسية قد بادرت بشراء لوحته « طوف الميدوزا » عقب وفاته وأفردت لها إحدى قاعات متحف اللوفر بباريس .. واعتبرتها من أثمن الكنوز التى أبدعتها عبقريات القمة من الفنانين العالميين الخالدين ، وتناست أن هذه اللوحة ذاتها كانت سببا فى نكبته !!

وعندما تصافح أعيننا لوحات جيريكو عن الخيول والمحاربين وفرسان الحرس ، تلك اللوحات التى يزدان بها متحف اللوفر العريق ، تتمثل فى أذهاننا تلك السنوات العجاف التى اعتصرت وجدان فناننا .. وهو يجابه أعتى القوى المتسلطة ، تلك التى كانت تتحكم فى حركة الإبداع الفرنسى والأوربى بوجه عام .. ولكن فناننا رفع راية التحرر .. وأرسى قواعد الرومانتية .. حيث توالت بعدها المدارس الفنية الحديثة فى القرن التاسع عشر ، وكانت بمثابة نافذة على الفكر الحر وفنون القرن العشرين وآفاقه الرحبة المعاصرة .



الجامعة العربية .. واتحاد المؤرخين العرب .. والمهتمون بالتاريخ والفنون الإسلامية فى عالمنا العربى .. تمثلت فى خاطرهم ـــ فجأة ـــ ذكرى الأمجاد الغابرة .. وهفت نفوسهم إلى انتصارات الفتح العربى فى ربوع أوروبا .. أو لعلها صحوة الوفاء الكامن فى النفس العربية الأبية التواقة إلى إحياء التراث واستلهام البطولة من بين تراكمات التاريخ والأطلال .. أطلال ثمانية قرون من أيام العرب على أرض الأندلس !

كان ذلك فى عام ١٩٧٩ م .

فكر اتحاد المؤرخين العرب فى إقامة « مهرجانات الأندلس » فى غرناطة على غرار « مهرجان العالم الإسلامى » الذى أقيم فى العاصمة البريطانية فى صيف ١٩٧٦ وأبلت فيه الدول العربية بلاء حسنا ، بمعروضاتها ومساهماتها المختلفة . فكان عملا عظيما أقام الدنيا حينذاك ولم يقعدها لما أحاط بالمهرجان من روعة فى الإخراج والدعاية والتنظيم . نعود إلى فكرة مهرجان الأندلس فنرى إخواننا وقد عقدوا اجتماعات رئيسية ، تفرعت عنها لجان متخصصة ، تشعبت بدورها إلى جماعات علمية وفنية وإعلامية .. عقدت فى عاصمة خليجية هى « الدوحة » ، وهناك على الأرض الإسبانية فى مدريد حيث قوبلت الفكرة بالحماس والترحيب ، وقدموا من أجلها كل التسهيلات والإغراءات : عرض النفائس وكنوز الآثار العربية الإسلامية ، والدعاية العالمية اللازمة ، وأن يفتتح ملك إسبانيا هذا المهرجان .. إلى آخر هذه العروض السخية التى تليق بالحدث الكبير !

.. وأخيرا تأجل المشروع إلى أواخر العام .. ثم إلى عام ١٩٨١ .. ثم إلى أجل غير مسمى .. ولنصدق أو لا نصدق أن العائق الوحيد كان هو التمويل ! ولا تحسبوا أن هذا (التمويل) قد وصل إلى عشرات الملايين .. بل كان فى حدود ثمانية ملايين دولار فحسب ! وكل ما استطاعت اللجان أن تجمعه من جميع دولنا العربية أو تحصل على مجرد وعود بالمساهمة يومها .. لم يتعد المليون ! ولذلك وئدت الفكرة ولم تر النور .. وتبدد الحلم الأندلسى الذى داعب خيالنا منذ أن ذابت شموع غرناطة فى ليل إسبانيا الطويل !! معذرة ، فقد كانت هذه الخاطرة على قلمى وتجثم فوق صدرى فأردت أن أذكرها قبل أن أتطرق إلى الحديث عن أمجاد الأندلس .. فنا وفكرا وحربا مستعرة لا هوادة فيها ، فبعد أن كانت حرابنا مصوبة إلى صدور أعدائنا .. لم نلبث أن شهرناها فى وجوه بعضنا البعض ، بعد أن أصبح المسلمون الفاتحون شيعا وجماعات فرقتها الحروب والخلافات حتى استسلمنا ، وسلمنا مفاتيح غرناطة إلى الفرنجة ، لينكلوا بما بقى من المسلمين ما وسعهم التنكيل !!

رحلة بين أطياف الماضى

لنتمثل معا طارق بن زياد وهو يعبر المضيق الذى يفصل إفريقيا وأوروبا فى العام الثانى والتسعين للهجرة ، ثم نعود لنرافق موسى بن نصير وهو يعد العدة فى القيروان ويلحق بمن سبقوه ليتم الفتح ، وتتركز دعائم الحكم الإسلامى فى الأندلس ، وها هم أولاء أمراء اسبانيا وحكامهم يوقعون معاهدات التعايش والسلام مع الفاتحين ، مستثمرين السماحة الإسلامية المعهودة .. وتستقر الأمور .. وينعم المسلمون بالجنة الخضراء فى ربى الأندلس .. ولنستمع إلى « ابن خفاجة » .. وهو يتغنى بها فيقول :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجارُ
ما جنة الخلد إلا فى دياركم
ولو تخيَّرتُ هذا ، كنتُ أختارُ
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا
فليس تُدخل بعد الجنة النارُ !

.. ولنقفل راجعين إلى بعيد : إلى الشرق العربى فى الجانب الآخر لنشاهد مأساة الأمويين على أيدى العباسيين .. ولنتسلل مع عبد الرحمن بن معاوية لنكون فى معيته وهو يفر قاصدا مصر ، ثم يتجه غربا ويستقر به المقام فى المغرب !.. هيا نسبقه لنستطلع ما يدور فى الأندلس ، لقد بدأت لعبة الصراع الأخوى المعهود !! فقد اندلعت



الحروب بين العرب والبربر .. وحدثت مأساة استقطاب القوى وإهدار الطاقات في التناحر والشقاق .. فيجدها الأمير الأموى عبد الرحمن ، فرصة سانحة ليباغت هذه الجماعات المتخاصمة ، وينقض عليها ، وينفرد بالحكم ، وها هو ذا يجمع الشتات ويوحد الصفوف ويلم الشمل .. فتدين له الأندلس كلها .. ويلقب بصقر قريش .. أو باسم عبد الرحمن الداخل ، لدخوله قرطبة في العاشر من ذى الحجة عام ١٣٩ هـ ، وتصبح عاصمة ملكه .. ولم تلبث النار أن تخمد حتى اندلعت من جديد .. ويُكافح هشام بن عبد الرحمن لإخمادها مرة أخرى .. وفى عهد خلفه عبد الرحمن الثانى يعود الاستقرار ، لتتألق الأندلس بعد ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث .. وهو الملقب بالناصر .. وفى جو هذا الاستقرار والازدهار ، يحيى الخلافة الأموية ، ويصبح الناصر رمزا لهيبة البلاط الأموى العريق . ولننظر بفخر واعتزاز إلى قرطبة العاصمة وقد أصبحت مركز إشعاع حضارى فى إسبانيا وأوروبا كلها ، وتتألق فيها الفنون بوجه خاص حتى أضحت قبلة المبدعين من سائر الأمم والممالك ، يقصدونها لينهلوا من روائعها التى وصلتْ القمة فى عهد الحكم بن عبد الرحمن ! لقد أضحى العرب قوة عسكرية مهابة .. ومركز إبداع وإشعاع فى الربوع الأوروبية !

.. وأعتقد أنكم تحسون معى بأن فترة الاستقرار قد طالت بصورة لم نعهدها مع أصدقائنا الفاتحين .. فهذه بوادر الانقسام تظهر فى الأفق من جديد بعد عهد المنصور ، إنها تتسع .. وتتفاقم حتى تنتهى الدولة الأموية فى الأندلس بعد مقتل هشام الثالث عام ٤٢٢ هـ . وانتهت بذلك إحدى الفترتين الكبيرتين من حياة الأندلس !

أما الفترة الثانية وهى ما يطلق عليها : فترة الحكم المغربى الإسبانى ، فقد أعقبت حروبا وتطورات كثيرة ليس هذا مجالاً لسرد دقائقها ، فلنعايش حكام الطوائف والمرابطين والموحدين ، ولا بد من حركة مكوكية دائبة لتوالى استطلاع الأحوال بين المغرب والأندلس لأن المسيرة طويلة .. طويلة ، وعثراتها فى عهودها الأخيرة .. كثيرة .. كثيرة !

فلنستحث الخطى لكى نعبر العوائق والكبوات .. ولكى نجنب أنظارنا تلك المأساة البشعة .. وهى اقتتال المسلمين .. وتربص المتربصين من حولهم يتحينون الفرصة للانقضاض والانتقام !! هناك .. فى هذا الظلام الدامس ، ومن بين الأنات ونزيف الدماء .. ينبثق نور غرناطة .. إنها آخر شموع الوجود العربى الإسلامى فى ليل الملحمة الأندلسية وفردوسها المفقود !

.. غرناطة الفن الرفيع ، وتألق العبقرية العربية : قصور الحمراء الرائعة .. متحف البذاخة وروعة العطاء ودرة الإعجاز البشرى على مر القرون .. لقد تربعت غرناطة على عرش التفوق الفنى والإشعاع الحضارى على مدى ثلاثة قرون ..

ومرت أحداث ، ويالها من أحداث جسام !!

.. وأخيرا كانت النهاية ، يوم أن خرج أبو عبد الله ، آخر الحكام المسلمين ، متجها إلى منفاه بجبال البشرة (فى فجر ٢ يناير ١٤٩٢ م) .. ونراه فى انكسار مرير ، يسلم مفاتيح الحمراء إلى الملك الإسبانى فرديناند وزوجته إيزابيلا ، بعد أن سعى بنفسه إلى معسكرهما .. وقد ارتسمت على ملامحهما وقوادهما أمارات الزهو والخيلاء ، قائلا لهما : « هذه ــ أيها الملك ــ مفاتيح الحمراء .. اذهب إلى غرناطة وتسلمها .. فهى مدينتك .. ويمد فرديناند يده ويتسلم مفاتيح المدينة .. ثم يسلمها بدوره إلى إيزابيلا .. التى تغمرها فرحة عارمة .. وتتصنع الأدب فتنظر إلى زوجها وتقول : كل شيء ملكك يا سيدى !!

.. ونجول بين المسلمين فى تلك اللحظات العصيبة .. وقد فاضت نفوسهم بالأسى .. وطفحت قلوبهم بالحسرة ، وهم ينظرون خلفهم على ثمانية قرون من أيام العرب ، وعلى غرناطة .. درة الفن والعبقرية .. ويسير الركب الحزين ، ويساق أبو عبد الله إلى المنفى .. وقد فاضت الدموع من عينيه .. وتعنفه أمه الملتاعة قائلة له :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال !!

وإذا كانت (الدولة) قد انتهت من الأندلس ، إلا أن المسلمين الذين آثروا البقاء ، ظلوا متمسكين بدينهم ولغتهم وتقاليدهم برغم الوعد والوعيد .. واستبد الغضب بالأساقفة ، فأمروا بجمع الكتب العربية وإحراقها فى الساحات العامة ، واشتد الضيق بالأندلسيين ، وأثقلت كواهلهم بالضرائب ، وتمادى الإسبان فى إهانتهم حتى اضطر معظم الفنانين والعلماء وكبار العائلات إلى الهجرة نحو بلاد المغرب ، حاملين معهم مفاتيح بيوتهم ، حيث كانت فكرة العودة إلى الديار تراود خيالهم فى كل حين .. أما من بقي من المسلمين ، فقد أمر الإمبراطور فيليب الثالث بطردهم عام ١٦٠٩ ، وبهذا اندثرت البقية الباقية من دولة الأندلس التى كانت منارة الفن والفكر على بحر الظلمات.



.. وقصة الأندلس ، وملاحمها الحربية المتعاقبة ، كانت وما زالت إيحاء وإلهاما دائما ومعينا لا ينضب للإبداع الفنى على مر العصور .. والغالبية العظمى من هذه الإبداعات للفنانين الأجانب (والإسبانيين بخاصة) ، يتناولونها من وجهة نظرهم دون أى تعاطف مع المسلمين وأمجادهم فى الأندلس .. ولم نسمع حتى اليوم أن فنانينا المعروفين قد أسهموا فى تسجيل ثمانية قرون من أيامنا الخالدة من وجهة نظرنا ، ومن حقيقة إنجازاتنا العربية الإسلامية على الأرض الإسبانية .. ولم تر مؤسساتنا ومعاهدنا وأكاديمياتنا الفنية وقد فكرت فى إقامة مهرجانات أندلسية كتلك الفكرة التى أوردتها فى مطلع مقالى هذا .. وكان طبيعيا أن يساهم الفن العربى الإسلامى المعاصر فى إبراز جوانب خفية على أذهان الفنانين الغربيين الذين لا يرون إلا ما يتفق مع تطلعاتهم فى السيطرة والتفوق ..

أين لوحات الملاحم البطولية التى صال فيها الفاتحون وجالوا حتى حققوا النصر ودالت لهم الممالك الإسبانية ؟ أين بطولات طارق بن زياد ، وموسى بن نصير ، وعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ؟ أين البطولات الجماعية والفردية التى بدأها المسلمون فى خضم بحور الأحقاد والتربص والعداوة التى كانت تحيط بهم من كل جانب .. تلك البطولات التى أرست القواعد الإسلامية على الأرض الأوروبية ثمانية قرون كاملة ؟

إن تاريخنا المكتوب فى بلاغة لفظية وتعبيرات رنانة ، يجب أن يكون ملهما لنا — نحن المهتمين بالفن فى أرجاء الوطن العربى والإسلامى — لكى تمتلئ متاحفنا ومطبوعاتنا بصور هذه الأمجاد الغابرة بمفهوم إسلامى ، وهى التى صورها لنا الأجانب نسجا على منوالهم !

● ● ثمانية قرون من أيام العرب والإسلام على أرض الأندلس .. كلها عطاء خالد سما بالفكر الإنسانى من مراحل البداوة والجهالة والظلمات التى كانت تغط فيها الممالك الأوروبية وقتها .. إلى آفاق العلم والتفتح ونور المعرفة .. واليوم أضحت إسبانيا تفاخر العالم أجمع بكنوزها التراثية الإسلامية التى خلفتها الإبداعات الفنية الرفيعة فى أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ولا سيما فى غرناطة .. متمثلة فى قصور الحمراء المعجزة .. وعندما نتدارس آيات الفن الإسلامى فى روائع تلك الآثار ، نخلص إلى أنها فن أندلسى مميز لا ينضوى تحت مدارس الفن الإسلامية الأخرى ، تلك التى تعاقبت على مسيرة الفتح الإسلامى فى عهوده المتتالية .. وكما هو معروف ، فقد مر هذا الفن بعدة أطوار حتى تبلورت شخصيته .. ففى صدر الإسلام كانت هناك فترة انتقال يقدرها الباحثون بقرنين من الزمان .. إلى أن اتضحت سمات الفن الأموى ، ثم المدرسة العباسية .. التى تفرعت إلى عدة مدارس إقليمية منتشرة فى دول الإمبراطورية الإسلامية كافة .. ثم سيطرت المدرسة الفنية الإسلامية فى أكمل وأرسخ وأبرز شخصية مستقلة فى العهد العثمانى التركى ، حيث ظهر فن « الأرابيسك » بسماته المحددة .. وصار الأرابيسك « أى الفن العربى الإسلامى » ، مطمحا لكل فنان على ظهر الأرض .. حتى فى هذا العصر الحديث المفعم بالمستجدات والمدارس الفنية المستحدثة ..

وقد أقر معظم المؤرخين لحضارة الإسلام .. أن أبرز سمات هذه الحضارة هو الفن .. وبخاصة ما خلفه المسلمون فى الأندلس ! .. وإذا كان العصر الحديث قد شهد كثيرا من هؤلاء الباحثين والمؤرخين ، فإن أبرزهم جميعا .. برنارد لويس رئيس الدراسات العليا بجامعة برنستون الأمريكية ، وريتشارد أتينجهاوزن .. ذلك العلامة الذى ألف أكثر من ثلاثمائة موسوعة عن الفن الإسلامى والحضارة العربية . وقد خلص الجميع إلى أن فنون الأندلس هى منتهى العبقرية الإسلامية . ولعل خير شهادة معاصرة على عبقرية هذا الفن ، قد جاءت على لسان الفنان العالمى الشهير « ماتيس » الذى يطلق عليه (أحسن الملونين) إذ يقول : (إننى ما كنت لأصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن درست الفنون الإسلامية فى روائع الأندلس) ! وشهادة أخرى جاءتنا على لسان « جرترود ستاين » وهى من أبرز نقاد الفن العالميين ، فى معرض حديثها عن بيكاسو حيث قالت : (إن أحسن مراحل بيكاسو الفنية هى المرحلة التى تأثر فيها بالفن الإسلامى فى الأندلس ، وليس هذا عجيبا ، فبيكاسو إسبانى ، والإسبان عرب) !!





ولنتأمل لوحة تسليم مفاتيح الحمراء .. لوحة رائعة لفنان إسبانى شهير اسمه ف . براديلا F. PRADILLA ولكن .. على أى صورة يظهر الفريقان ؟ تأملوا معى أى بؤس وضياع صوره الفنان الإسبانى عندما رسم المسلمين ومحاربيهم ؟! ثم لنتأمل





● ● أما المؤسف حقا ، فهو أن نرى معظم الروايات التاريخية عن أمجاد الأندلس — إن لم يكن كلها — إسبانية الأصل .. هذا ، إذا ما تحدثنا عن الجانب الفنى والإبداعى فى مسيرة التاريخ .. وقد كتب العديد من كتابنا ومفكرينا العرب ، بعضا من هذه الروايات والمسرحيات .. كما نرى من حين لآخر بعض الفنانين « الرسامين » المسلمين يصورون الحروب والأحداث التى شهدها تاريخ الأندلس .. ولكن هذه الإبداعات كلها مستمدة أساسا من أصول إسبانية ومن وجهة النظر المعادية .. من تلك النظرة المتحازة التى يطيب لها أن تصور العرب والمسلمين فى أسوأ صورة .. جحافل متنافرة متصارعة دموية الوسائل .. وبالتالى .. لا يتعاطف القارئ أو المشاهد إلا مع الجانب الأوروبى « صاحب البلاد » .. بل وينظر نظرة ازدراء إلى هؤلاء العصابات المتقاتلة التى لا تستحق ولا يجب أن يكون لها موضع قدم فى تلك الأرض « المتحضرة » !

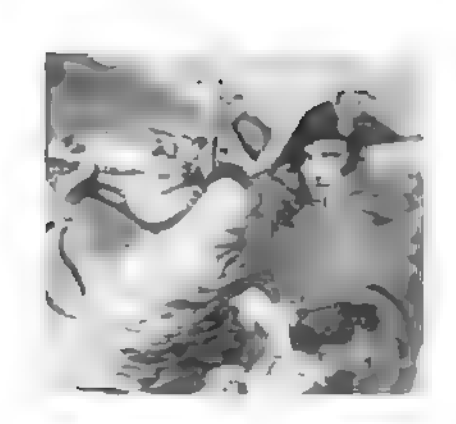
ومن يقرأ كتاب المؤلف الإسبانى « خنيس بيرث دى إيتا » الذى سماه « حروب غرناطة الأهلية » ونشره على العالم الأوروبى فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى ، يخرج بالانطباع الذى ذكرناه نحو المسلمين ولا سيما فى أواخر عهدهم فى غرناطة .

ومن الغريب أن السواد الأعظم من كتابنا ومؤرخينا ينسجون على نفس المنوال وينهلون من هذا المرجع الإسبانى ، ويستلهمون الأحداث التى ذكرها خنيس بيرث .. وكأنها هى الواقع والتاريخ والحقيقة !

وكان طبيعيا أن يسير الفنانون الغربيون على هذا النهج (وهم منطقيون فى سلوكهم هذا) ويخرجوا للعالم لوحات ترسخ هذا المضمون فى أذهان الناس .

جانب فرديناند وإيزابيلا ورفاقهم ، تراهم وكأنهم مدعوون لحفلة ملكية مترفة ، وقد لبسوا أفخر الثياب وعلت وجوههم أمارات البشر والتعالى والاعتداد والغرور .. مع أن التاريخ يذكر أن هذا اللقاء كان فى معسكرهم أثناء الحرب الطاحنة المريرة مع المسلمين ! فهل هذا هو جو الحرب الذى كانوا يعيشونه ؟ ولكنه غياب الفنان المسلم الواعى عن الساحة مما حدا بنا لأن تكون مصادرنا دائما أجنبية .. ولا سيما ما يتعلق منها بلوحات الحرب والتاريخ !





الزائر لقصر فرساى أو متحف اللوفر بباريس .. يقف مشدودا أمام لوحات التاريخ التى أبدعها عباقرة الفنانين الفرنسيين .. لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلوها فى روائعهم الفنية الخالدة .. ولعل حياة نابليون بونابرت بما حفلت من أحداث مروعة ، وحروب طاحنة ، ومواقف تاريخية قلبت موازين أوروبا كلها .. بل شكلت خريطة العالم من جديد .. قد حظيت بالنصيب الأوفر من عطاء هؤلاء الفنانين الأفذاذ .. ويحدثنا التاريخ عن تلك القرائح الفنية المتقدة التى تتفاعل مع الأحداث وتنفعل بما يدور حولها من تحولات مصيرية .. فتستلهم هذه وتلك وتسجلها فى أعمال فنية هى علامات بارزة تحدد معالم المسيرة الإنسانية على مر العصور .. أى أن الحدث كان يفرض نفسه على وجدان الفنان والمؤرخ والمفكر والشاعر والأديب .. وتتوالى آيات العطاء الإبداعى المشحون بشتى عوامل العاطفة والانفعال .. ولكن نابليون قد طوع هذه الملكات فى تخطيط منهجى مرسوم .. تماما كما كان يخطط لمعاركه الأسطورية الجسورة .. فنراه يصطحب بجانب قواده ومستشاريه العسكريين ، جيشا آخر من الفنانين والعلماء ، يسجلون الغزوات والأبطال ومسرح المعارك ومظاهر الحياة ونبض الجماهير .. وكل ما تقع عليه أعينهم .. وتكون المحصلة سجلا جامعا شاملا ومرجعا حيا للأحداث فى ذمة التاريخ .. والحملة الفرنسية على مصر — مثلا — خير شاهد على ذلك .. فقد تتابعت أحداثها .. وتداخلت فيها شتى المؤثرات السياسية والعسكرية .. وانتهت كما ينتهى البشر .. وكما تخمد ألسنة اللهب لتصبح رمادا .. ولكن آثار الفنانين والعلماء ظلت باقية فى ذمة التاريخ والفكر والوجدان ..

وقد عرفنا كثيرا من أعلام الفن الذين تخصصوا فى رسم معارك نابليون ، وكان من أبرزهم الفنان الفرنسى الشهير جرو Gros ودافيد David وغيرهما .. ويمكننا أن نطلق عليهم : رسامى انتصارات نابليون .. فلم يعرف هذا القائد الأسطورة فى حياته غير النصر فى جميع معاركه ، وكان الحظ حليفه فى كل الحروب التى خاضها .. أو على الأقل لم يعرف الهزيمة الساحقة التى كان يذيقها دائما لأعدائه .

ولكن معركة واترلو Waterloo كانت استثناء مروعا .. ولا غرو أن تصبح هذه الملحمة المريرة نقطة تحول فى تاريخ نابليون وأوروبا والعالم .. بل كانت بالنسبة للإمبراطور نقطة النهاية !

وكان من عادة نابليون أن يخصص وقتا محدداً كل يوم لكتابة مذكراته ، واستعراض ما رسمه الفنانون وكتبه المؤرخون عن معارك اليوم ، وكثيرا ما نراه يتدخل للتصحيح أو التعديل أو التحوير أو إلغاء جزء معين من صورة أو إضافة شىء عليها ، ويدخل فى نقاش حاد مع الرسام » أو المؤرخ « ينتهى بانتصار أحد الطرفين فى تبرير موقفه ، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر أن الفنان جرو كان شديد الثقة بنفسه ، أمينا على التاريخ والواقع بدون تحيز أو مجاملة ، ولذلك ، غالبا ما كان يصر على مواقفه ولا يخضع لملاحظات نابليون ، وقد قال للإمبراطور فى إحدى هذه المناقشات : إننى أمين على أحداث التاريخ ، ولا أزيف الواقع من أجلك يا سيدى الإمبراطور .. فامتثل نابليون وقال له : إننى احترم رأيك ، ثم نظر إلى مستشاريه وقال : فليشهد التاريخ أننى أحترم رأى الآخرين وأحيى مواقفهم الشجاعة !.. ونعود إلى محطة النهاية واترلو ، فنجد أن الخطب جلل .. وقد ترك نابليون للظروف أن تعبث بكل شىء حسب هواها .. وأفلت الزمام من بين يديه .. ولم يراجع أو يناقش أو يقترح ! وأنى له ذلك وقد عصفت الواقعة به وبكيانه من الأعماق .. وشاهد كل ما بناه على مدى عشرين عاما يتحطم فوق رأسه !!

... هذه هى معركة واترلو الفاصلة التى تناولها المبدعون فى أعمالهم مئات المرات .. وصفها فيكتور هوجو شعرا ،



وكذلك « والتر سكوت » ، وتترا « ستندال » وعشرات غيره .. ورسمها آلاف الفنانين كل بطريقته .. وأخرجت دور النشر سيلا من المؤلفات الأدبية والتاريخية التى تتناول واترلو بالتحليل والوصف والتعليق .. ناهيك عن إخراجها للسينما والمسرح وغير ذلك .. إنها معين الإلهام الــذى لا ينضب أبدا أمام الفنان ! فلنعش لحظات فى أجواء هذه المعركة التى زلزلت أوروبا وقلبت موازينها رأسا على عقب !

القرار الخطير

ظنت أوروبا أن الأمور قد استتبت ، وأن الحرب قد وضعت أوزارها بعد مؤتمر (فيينا) وعودة الملكية إلى باريس ونفى الأسد الجريح نابليون إلى جزيرة إلبا .. ولكن فرار الإمبراطور من المنفى وعودته إلى باريس كارثة كبرى ! وها هو ذا فى قصر التويلرى وقد التف حوله الشعب الفرنسى من جديد ، والجيوش تعلن ولاءها وانضمامهــا إلى الإمبراطورية .. بل لقد سارع الملك بالفرار .. وأصبح نابليون يقبض على زمام الأمور .. وفرنسا كلها تغلى حماسة وحمية وكأنها بعثت بعد موتها .. أو هكذا كان يخيل إليهم ! وتجمع كبار الساسة الأوربيون على عجل يتدبرون الخطب الجلل .. لا بد من حشد كافة جيوش إنجلترا وبروسيا والنمسا وروسيا على الفور .. ولا بد من إنزال ضربة قاضية بالأسد المخيف دون إبطاء ! وهكذا اتحد ملوك أوروبا وقادتها فى اللحظة الأولى من لحظات الرعب كما لم يتحدوا قط من قبل ! واختاروا أكفأ قوادهم لخوض هذه المعركة الفاصلة : (ولنجتون) .. مقبلا من الشمــال على رأس الجيش البريطانى .. و(بلوخر) بجيشه البروسى .. و(شوارزنبرج) يقود الجيش النمسوى ، والقيصر ألاكسندر بقواته الروسية التى تعبر سهول ألمانيا الفسيحة قادمة من الشرق .. الأربعة الأوربيون الكبار دوق ولنجتون ـــ Duke of Wellington ـــ والمارشال جبهارد فون بلوخر Marshal Gebhard Von Blucher ـــ والأمير فون شوارزنبرج Prince Von Schwarzenberg ـــ وقيصر روسيا ألاكسندر ـــ Czar Alexander of Russia ـــ وضعوا خطتهم لكى يطبقوا على نابليون من كل جانب ..

وأدرك الأسد المخيف من الوهلة الأولى بوادر الخطر الذى بات يتهدده ، وقرر أن يهاجم كلا منهم على انفراد قبل أن يتجمعوا .. وقبل أن تخمد جذوة الحماسة فى نفس جنوده . وفى صباح ١٥ يونيو سنة ١٨١٥ عبر حدود فرنسا فى اتجاه بلجيكا ، ولم يمض آخر النهار حتى كان قد انتصر على القوات البروسية فى « لينى » ، فانسحب بلوخر بفلوله المهزومة نحو بروكسل . وأخذ نابليون يعد العدة لضربته الثانية ضد القوات البريطانية .. وكانت المجابهة هذه المرة مع أعتى الأعداء ولنجتون ! ولم يكن فى الوقت متسع .. بل كان نابليون يكاد أن يعدو عدوا وتلهث قواته من خلفه ليوجه ضربة قاصمة إلى ولنجتون ولا سيما وهو يعلم أن الإمدادات والدعم المستمر يأتيان إلى عدوه ساعة بساعة دون انقطاع .

الالتزام .. وفن القيادة

وفى اليوم الثالث (١٧ يونيو ١٨١٥) ، سير نابليون جيشه بكامله نحو مرتفعات « كاتر برا » التى يحتمى بها ولنجتون .. عدوه الإنجليزى ذو الأعصاب الفولاذية .. ووضع فى حسبانه كذلك أن « بلوخر » بعد هزيمته يلملم فلوله ليلحق بحليفه ولنجتون فى أقرب فرصة ، ولمواجهة هذا الاحتمال أرسل نابليون قسما كبيرا من قواته المحاربة لمطاردة الألمان المدحورين والحيلولة دون التقائهم بحلفائهم الإنجليز وأسند قيادة هذا الجيش إلى قائد كبير من أعوانه يدعى « جروشى » ..

وهنا نأتى إلى جروشى فنجد أنه القشة التى قصمت ظهر البعير ! إن جروشى هذا قد التصق اسمه فى التاريخ بكارثة واترلو .. وكان من الممكن أن يظل هذا القائد فى طى النسيان كمئات غيره من قواد نابليون لولا ما اشتهر به من الغباء والحرص على تنفيذ الأوامر حرفيا دون أن يستخدم عقله فى مرونة الحركة ومواكبة التطورات التى تطرأ على أرض المعركة !

ومع أننى لست عسكريا ولا أعنى بفن القيادة ، ولكن

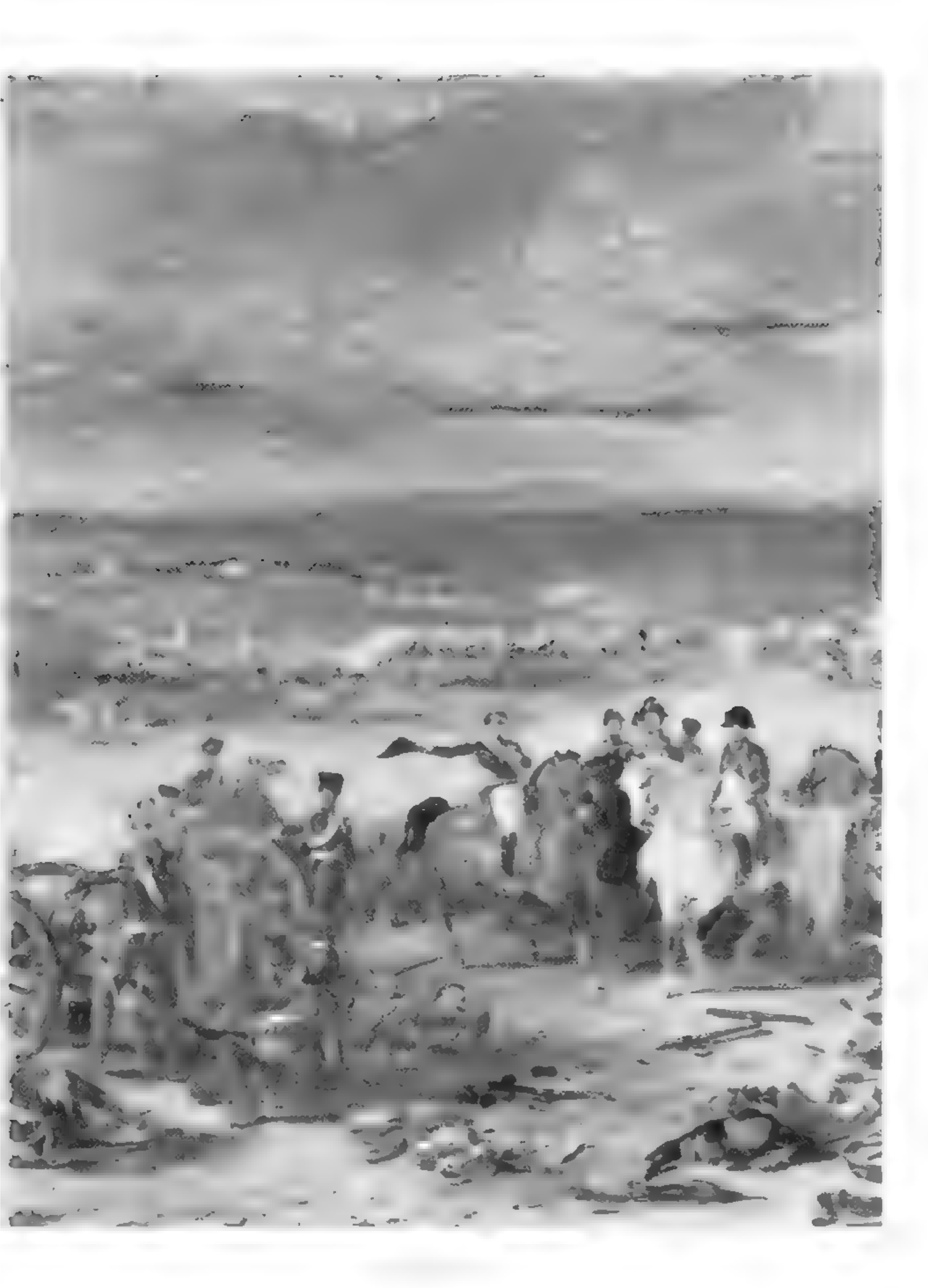


المعروف أن القيادة فن .. والفن ليس نصوصا جامدة تصب فى قوالب نمطية لا تقبل التعديل أو التطوير أو التصرف .

كان جروشى من قواد نابليون الذين رافقوه فى حروبه عشرين عاما .. أمينا شجاعا دقيقا كل الدقة فى تنفيذ الأوامر حرفيا ، ولكنه كان محروما من دهاء القواد العظام ومرونتهم ، عاجزا عن التصرف الذاتى فى الأوقات العصيبة .. وهكذا لم يصل إلى مركز الصدارة فى الجيش إلا بعد انقراض الكبار واحدا تلو الآخر فى ملاحم نابليون المتتالية ، ومن ثم اضطر بونابرت إلى أن يعهد إليه بهذه المهمة الخطيرة وهو يعلم تماما إمكاناته ومواهبه المحدودة فى استيعاب فن القيادة .. وخصوصا فى تلك اللحظات الحرجة .. بل بالغة الحرج فى حياته العسكرية كلها ..

« أقول : إن هذا التحليل العسكرى المتخصص ليس من عندى .. وإن كنت أتجاسر على الكتابة فى هذه الموضوعات الحربية .. فإن الأساس فيها — من واقع تخصصى — هو اللوحات الفنية التى تزخر بها المتاحف والكتب ودور الوثائق .. تلك التى أبدعها الفنانون مسجلين بها هذه الملاحم البطولية .. وعندئذ ، أستقى المعلومات من مصادرها لكى تكون لدى محصلة وثائقية وعلمية سليمة .. وقد قرأت وأنا بصدد الإعداد لهذا الموضوع ما ذكر عنه فى موسوعة : Histoire de France وكذلك العدد الخاص من مجلة Collier's الذى نشر عام ١٩٥٥ بمناسبة مرور مائة وأربعين عاما على معركة واترلو ، هذه المراجع وغيرها مما أحتفظ به فى أرشيفى الخاص .. ولكن ما أفادنى حقيقة من وجهة النظر التحليلية هو ما كتبه المؤرخ النمسوى الشهير « ستيفان زفايج » فى مؤلفه الذى كتبه بالألمانية وترجم فى أوائل الخمسينات إلى الإنجليزية تحت اسم : الساعة الفاصلة فى معركة واترلو .. عفوا .. وجدت أن من واجبى التنويه بهذه المراجع العالمية القيمة » .

نعود إلى نابليون بعد أن كلف « جروشى » بمهمة مطاردة « بلوخر » وفلوله الألمانية المهزومة والعمل على الحيلولة دون التقائهم بحلفائهم الإنجليز .. فنجده وقد





وضعته الظروف القاسية فى أسوأ مناخ ليحارب أعداءه من خلاله ! فها نحن فى يوم ١٧ يونية سنة ١٨١٥ .. والساعة الحادية عشرة قبيل الظهر ، والمطر ينهمر غزيرا دون توقف فيلطخ الجنود الفرنسيين بالأوحال ، ينوء كل منهم بحمله من البلل والوحل العالق بملابسه وحذائه ، وحين جاء وقت الراحة لالتقاط الأنفاس المجهدة ، لم يجد الجنود ما يحتمون به .. فجلسوا على الأرض الموحلة وظهورهم بعضها إلى بعض .. حتى نابليون نفسه لم يستطع أن يجد مكانا يرتاح فيه بعض الوقت ، فآثر أن يظل على حصانه ، يذرع تلك الطرق المبتلة ذهابا وإيابا يستحث الجنود ويمنيهم بالراحة والمجد بعد النصر ! لقد كان فى أشد العجلة يخشى فوات الأوان لحسم الموقف بمعركة فاصلة .. وزاد من متاعبه انقطاع مواصلاته واضطرابها بسبب المطر وسوء حالة الجو ، مما أدى إلى تأخر وتضارب الأنباء التى كان ينتظرها على أحر من الجمر من الرسل والسعاة ، وأخذ يغمغم : كيف أريد والحالة هذه — أن تكون هذه المعركة أوسترليتز أخرى ؟ أوسترليتز هى إحدى معاركه التى انتصر فيها انتصارا حاسما تغنت به أوروبا كلها .

ورغم ذلك ، لم تحل الساعة الواحدة من تلك الليلة ، حتى كان قد اقترب بجيشه من مربض غريمه الفولاذى ولينجتون . وحين أشرق الفجر .. عاد القائد الإمبراطور إلى مركز قيادته فى مزرعة (كايو) .. وهو لم يركن إلى الراحة أو النوم .. ولكنه لم يترك لجسده المنهك فرصة للتداعى أو الوهن والفتور ! وتسلم نابليون أول رسالة من جروشى .. القائد الملتزم المطيع .. وقرأ كلماتها المقتضبة التى تقول : « إننى ماض فى مهمتى فى تقفى أثر بلوخر ، ملتزما بأوامر قائدى الأعلى الإمبراطور نابليون » .. فقط لا غير !

أخذ نابليون يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، وهو يتأمل الأفق بعين فاحصة ، باحثا فى صبر نافد عن تباشير تنبىء بقرب تبدد السحب وتحسن الجو المكفهر .. ومع شروق الشمس التى تخترق شعاعاتها جدران السحب المتراكمة .. مال الجو إلى الاعتدال تدريجيا . فلما حانت الساعة الخامسة ، أصدر الإمبراطور أوامره بإعداد العدة للهجوم فى الساعة التاسعة ، وانطلق الرسل بالتعليمات فى جميع الاتجاهات .. ثم دقت الطبول تدعو الجيش للتأهب ..

وعندئذ فقط ، استجاب نابليون لحق بدنه عليه .. فألقى بجسده المتعب على الفراش كى يأخذ قسطا ضئيلا من الراحة .. وليستعد للنزال الرهيب بعد ساعات قلائل وليترك لأحلامه العنان لتتصور أمجاد معركة أوسترليتز Austerlitz التى غيرت خريطة أوربا قبل اليوم بعشر سنوات (عام ١٨٠٥) ، حينما كان القياصرة والملوك يسعون إليه خاتمين يطلبون وده وينشدون رضاه .. لقد كانت كلماته لجنوده وهو يستحثهم على سحق أعدائهم قبيل المعركة .. أن أعيدوا أمجاد أوسترليتز وامتلكوا أوروبا أيها الأبطال !

المعركة التى قلبت الموازين

الساعة التاسعة صباحا ، لكن الطوابير لم تحشد بعد للهجوم ، فإن الأمطار التى ظلت تنهمر ثلاثة أيام بدون توقف ، قد جعلت تحركات الجيش ومناوراته من الصعوبة بمكان ! وظلت التعبئة والاستعدادات للقتال تجرى على قدم وساق .. وأخيرا .. عندما أتم الجيش كافة استعداداته ، امتطى نابليون فرسه الأبيض ومضى بين جنوده يستعرض فصائلها على طول الجبهة ..

كان ذلك أمجد استعراض شهده نابليون فى تلك الأيام الحاسمة .. وفى الساعة الحادية عشرة تلقى الرماة الأمر بإطلاق النار .. انطلق الماريشال « ناى » فى المقدمة وزحف خلفه جيش جرار من المشاة ! وبذلك بدأت معركة « واترلو » الرهيبة ، بما زخرت به من مدها وجزرها ، وتأرجحها المستمر بين اليأس والأمل ، والجزع والتفاؤل .. ثم فى نهايتها الفاجعة ، فهى رمز لمأساة حياة نابليون نفسها ، وهى التى قررت مصير أوروبا لقرون عديدة ، ووضعت خاتمة درامية لحياة نابليون القيادية وقضت على طموحاته الأسطورية التى لم تحدها حدود فى يوم من الأيام .. بل وكانت نهايته الأليمة على صخور جزيرة « سانت هيلانة » ، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى سجنه وحيدا بائسا بعد أن أذاقه الإنجليز مر الأسر واليأس والهوان ! »





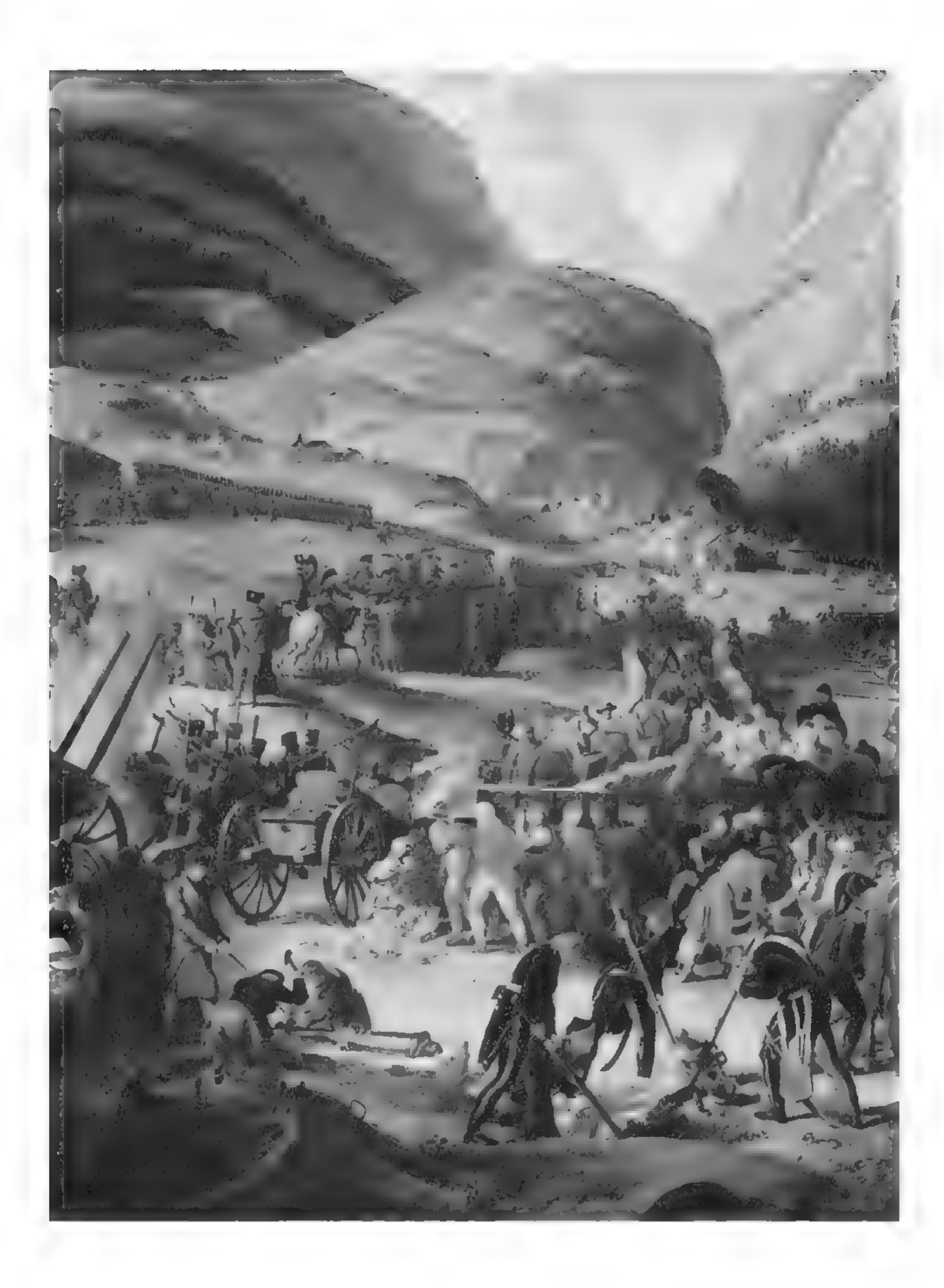


نعود إلى واترلو ، فنجد أن الطوابير الفرنسية ظلت ساعتين كاملتين تنسف المواقع وتحتل القرى وقد رشقت الأرض الموحلة من خلفها بعشرة آلاف قتيل من الجنود المتحمسين .. وتارة أخرى نجد أن المقاتلين يتراجعون تحت ضغط المقاومة الإنجليزية العاتية بقيادة ولينجتون ! لم يكن أحد الطرفين قد وصل إلى نتيجة ترجح كفته . كان الجيشان منهكين ، والقائدان قلقين ، كلاهما يعد الساعات بل الدقائق فى انتظار المدد والنجدات من الرجال والعتاد .. ولينجتون ينتظر النجدة من جيش بلوخر ، ونابليون من جيش جروشى ..

« وقد تعرضنا فيما سبق لشخصية جروشى .. فقلنا إنه قائد شجاع أمين ينفذ الأوامر حرفيا ولكنه يلغى فى سبيل ذلك رأيه الخاص وعقله وذكاءه ويصادر اجتهاداته .. ولا يعترف بالمرونة التى تفرضها ظروف القتال على القائد فى الميدان ! ولذلك عرف جروشى فى التاريخ العسكرى بشجاعته وغبائه فى الوقت ذاته ! » .

ومضى نابليون يذرع الافق بمنظاره المكبر ، ويرسل رجاله الواحد تلو الآخر لاستطلاع الأمر ، عله يحظى بخبر قدوم جروشى وقواته لنجدته .. ولو كان حدث ذلك لتغيرت الأمور ، وأعاد الأمجاد الأسطورية لفرنسا من جديد ! ولكن حماقة جروشى قد أعمته فى سبيل التزامه الحرفى بالأوامر ، بأن مستقبل نابليون .. والحرب .. وفرنسا ، قد وضعها القدر فى يديه .. إن التعليمات التى لديه بمطاردة بلوخر جعلته لا يفكر فى معمعة المصير على أرض واترلو ! ومضى هو وجيشه يطارد الأشباح دون أن يعثروا لجيش العدو على أى أثر !

وفى صبيحة أحد أيام المعركة المحتدمة .. جمع جروشى هيئة أركان حربه ، يتداولون فى أمر المعركة الرهيبة التى كانت أصوات انفجاراتها تدق مسامعهم من بعيد .. فكان من رأى مرءوسيه أن يكفوا عن المطاردة ويعودوا فورا إلى الإمبراطور فى واترلو .. ولكن جروشى أخذته العزة بالإثم ، وقرر أن يمضى فى مطاردة البروسيين حسب الأوامر الكتابية التى أمره بها نابليون ، وذلك حتى تصله أوامر أخرى تلغيها ! وخيم على الجميع صمت رهيب .. بينما كان هدير



المدافع يدوى عبر الجبال من بعيد ! وكانت اللحظات الحاسمة هى التى قررت مصير جروشى ونابليون والعالم بأسره ! المصير الذى كان خليقا أن يتحول لصالح فرنسا لو وثق جروشى بنفسه واستجاب لرغبة مساعديه فى اللحاق بالإمبراطور على أرض المعركة !

وغربت شمس القائد الأسطورة

ولنعد إلى ميدان المعركة .. الجنود بين كر وفر يهجمون ويحجمون ويقتلون ويقتلون .. ويقبض الإمبراطور على منظاره يذرع به الفضاء .. إنه ينتظر العنقاء تهبط من السماء .. ينتظر جروشى .. فهذه هى اللحظات الحاسمة .. حيث هد الجهد والإعياء قوى العدو .. لقد كاد نابليون أن يطير من الفرح عندما شاهد سحابة غبار آتية من الشمال .. لا بد أنها النجدة المنتظرة تأتى فى الوقت المناسب .. ولكن ضابطا بروسيا أسر لتوه فساقه الفرنسيون إلى نابليون .. وقرر أن الجيش القادم من الشمال ليس إلا طلائع جيش الجنرال فون بلوخر ! لقد استطاع أن يخدع جروشى والتف حوله ليلحق بحلفائه الإنجليز .. ويترك جروشى يطارد الوهم تنفيذا لأوامر الإمبراطور !

واستمات نابليون فى القتال فى تلك الليلة الكئيبة .. وأصدر إلى قواته أمرا بالهجوم الانتحارى الشامل ، فشهدت ساحة القتال صداما رهيبا لم يسبق له مثيل ! حتى إن القائد « ناى » وقد ثقل عليه أن يرى قائده الإمبراطور بهذه الصورة من اليأس والغضب ، جمع كل فرسانه (وكانوا عشرة آلاف فارس) وأغار بهم دفعة واحدة على صفوف العدو .. فكاد ولينجتون أن يفقد ثباته وصلابته .. لولا أن الإعياء والإجهاد قد حل بالقوات الفرنسية التى تسابق الزمن دون هوادة .. فلم تستطع هذه القوات الصمود .. واضطر الفرسان إلى الانسحاب تاركين الفرصة لآخر الفرق الاحتياطية أن تتقدم ببطء وحذر نحو المرتفع .. بعد أن استحثهم نابليون بأن يقاتلوا ببسالة .. وأن يحتلوا هذا المرتفع الذى يتوقف على احتلاله مصير المعركة !.

لقد ألقى نابليون بآخر ما فى جعبته على أرض معركة المصير .. واستمات ولينجتون وجنوده بعد أن أيقنوا أن قبضة الفرنسيين الحديدية تتهاوى وقد أصابها التخاذل والوهن ! وكلاهما ينظر فى ساعته بعد التوانى فى انتظار النجدة القادمة من الشمال ! ولكن ولينجتون يعلم تماما أن بلوخر ليس ببعيد .. ومازال نابليون ينتظر المجهول أو السراب بعد أن أرسل الرسل واحدا تلو الآخر إلى جروشى يأمره بالعودة عدوا دون إبطاء !

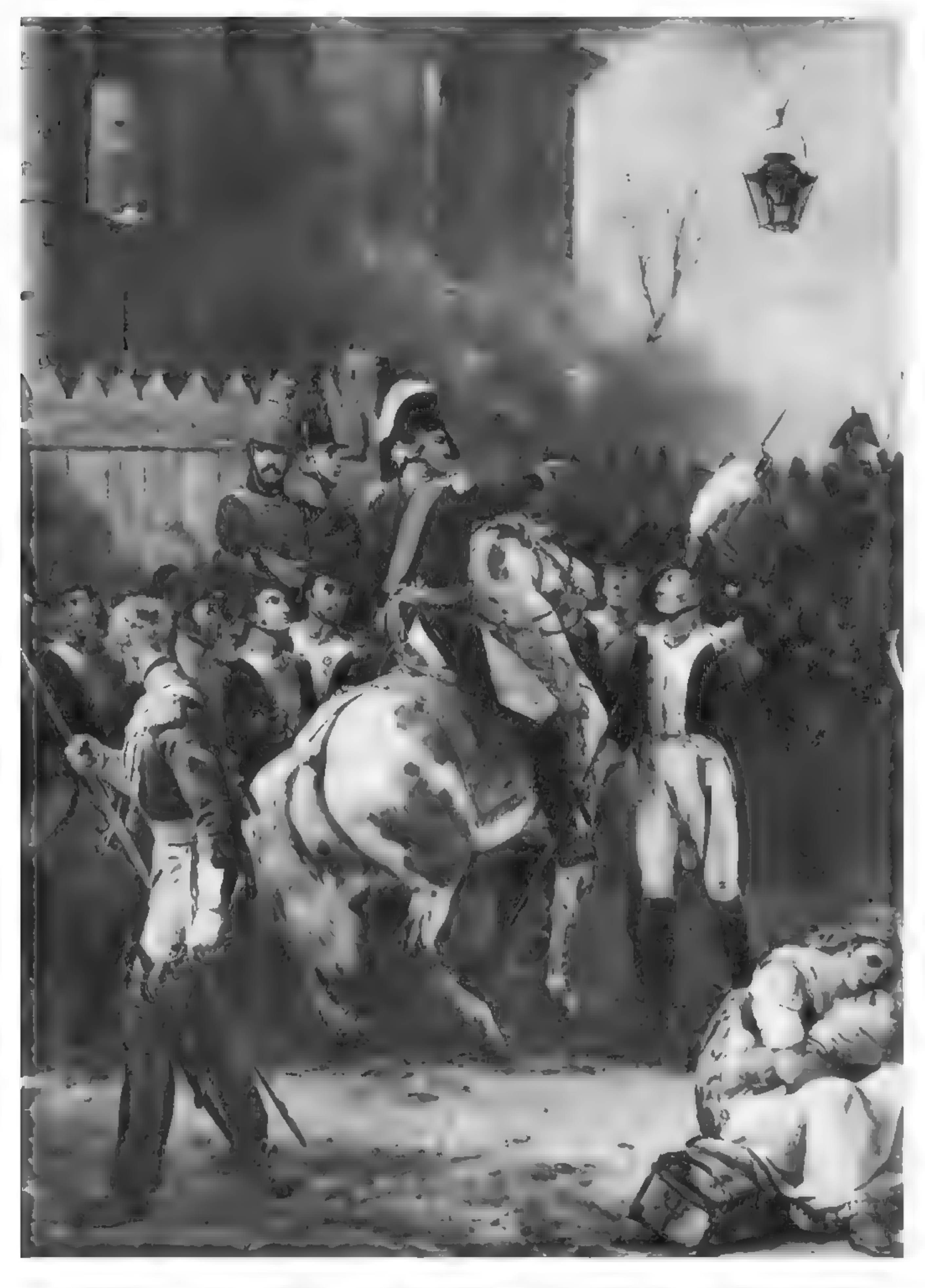
وفجأة .. وصلت النجدة الألمانية .. بلوخر وجيشه .. الذين اندفعوا إلى المعركة فى صفوف ولينجتون وأغاروا على القوات الفرنسية المنهكة .. كالسيل العرم يحطم فى طريقه كل شىء !

وامتطى ولينجتون جواده فرحا مستبشرا يلوح بخوذته المزركشة فى الهواء ، فيزداد جنوده حماسا وإقداما ، فاندفعوا كرجل واحد نحو صفوف فريستهم التى أذهلتها مفاجأة الانقضاض ، وشل قواها طوفان النجدة الألمانية المتماسكة !

ولم يبق للقوات الفرنسية حول ولا طول .. وسرت بين جنودها المسحوقة همهمات تهمس : « فلينج كل بنفسه » ! وتحولت الفلول الفرنسية إلى قطيع من الحيوانات الشاردة المفزوعة يجرى على غير هدى فى كل اتجاه ! ولولا حلول الظلام ، لما تمكن نابليون نفسه من الفرار !

وفى منتصف الليل ، دخل رجل محطم ملطخ بالأوحال ، يترنح من شدة الإعياء حانة متواضعة فى إحدى القرى الفرنسية ، ثم تهالك على أول مقعد صادفه .. إنه لم يعد إمبراطورا .. لقد أسدلت معركة واترلو الستار على إمبراطوريته .. وعلى أمجاده .. ثم على حياته بعد ذلك ! تلك الأمجاد الأسطورية التى بناها بعبقريته وجهده وألمعيته أشجع الرجال فى عصره .. على مدى عشرين سنة من الكفاح والبطولات والخوارق .. فحطمها فى ساعات قلائل رجل غبى وضعته الظروف التعسة فى مركز القيادة المؤقتة .. إنه جروشى الذى ظل يطارد الأشباح حتى انتهى كل شىء ،

وفى اليوم التالى كانت أجراس النصر والفرح تدق فى بروكسل ولندن وموسكو وفيينا .. وكافة العواصم الأوروبية .. وما إن انتشر خبر هزيمة الأسد المرعب





نابليون .. حتى أقيمت حفلات الابتهاج فى أرجاء أوروبا التى طالما أقض نابليون مضاجعها زهاء عشرين عاما أو يزيد .

أما فى باريس فقد صعق الجميع بخبر الهزيمة ، بينما انهمك قواد الحرس الوطنى ينظمون صفوفهم للدفاع عبثا عن العاصمة ذاتها ولكن هيهات .. لقد اجتاح الطوفان الأوروبى جميع الحصون والدفاعات اليائسة المتهالكة .. وكانت النهاية الأليمة المفجعة !

★ نسيت أن أذكر أن جيوش النمسا وروسيا كانت ما تزال تسير ببطء نحو أرض المعركة ليطبق الجميع على نابليون من كل اتجاه .. وانتهت واترلو قبل وصول قيصر روسيا « ألاكسندر » على رأس قواته ، وكذلك الأمير فون شوارزنبرج بقواته النمساوية .. ولكن الذى ساهم بالنصيب الأوفر فى الهزيمة .. هو القائد جروشى الذى أطاع نابليون طاعة عمياء .. ونفذ أوامره حرفيا بحذافيرها وألغى ذكاء القائد ومرونة صاحب القرار من موقع المسئولية ومواكبة الأحداث والمتغيرات من حوله .. فاستحق الهزيمة عن جدارة .. بل ونهاية الإمبراطورية من جذورها !



وتوطدت الصداقة بين الرئيس الأمريكي والفنان المغامر ، وأصبح ريمنجتون فنان الحرب والتاريخ بلا منازع !

فى تاريخ الفن ، نشاهد عدة ظواهر إبداعية جديرة بالتقييم والتنويه .. كانت بمثابة علامات بارزة وتحولات عظيمة فى المسار الفنى ، وركائز انطلاق لحركات تالية أثرت مناهل الفكر الإنسانى على مر العصور .. ولا نقصد بهذه الظاهرة تلك المدارس والنزعات الفنية التى استهدفت تطوير المفاهيم الفنية واستحداث معالجات مبتكرة (للشكل) أو لمعايشة تجارب فنية تنتهج المدارس الفلسفية أو المكتشفات العلمية الحديثة كعلوم البصريات وتحليل الضوء وما إلى ذلك .. ولكننا نعنى هؤلاء العباقرة الذين أوقفوا حياتهم على تسجيل جانب معين من الحياة حولهم .. وسخروا موهبتهم وطاقاتهم فى تخليد أجواء بعينها ، راضين بما يلقونه فى سبيل تفانيهم وولعهم بتأدية هذه الرسالة بعد أن ملكت عليهم كل اهتماماتهم وأثارت مشاعرهم ووجدانهم .. فنرى من هؤلاء الرواد من عاش حياة الزاهدين بعيدا عن المدنية وصخبها وبهرجتها ومتعاتها ، ليعيش فى الغابات والأحراش ، يستلهمها فى إبداعاته ، ويخرج للفن أعمالا تنبض بالحياة والحيوية ، وتعج بالفتنة الكامنة فى هذه المخلوقات المثيرة .. وهذا ما فعله فنان بريطانى معاصر شهير هو دافيد شبرد . الذى أضحى حديث العالم فى تجرده وحبه للغابات وسكانها من الضوارى الإفريقية ولا غرو أن تباع لوحاته الآن بمئات الألوف من الجنيهات ، وتحجز قبل رسمها بعامين على الأقل ! وكما فعل من قبل فنان فرنسى عالمى كبير مثل « جوجان » الذى اشتهر برسمه للجزر النائية فى المحيطات وفتياتها السمراوات اللاتى يعشن حياة أقرب للبدائية منها إلى التحضر والمدنية .. ورأينا « ديجا » و« تولوز لوتريك » ولوحاتهما الرائعة عن حياة الليل واللهو والمسارح .. والأمثلة كثيرة لا يتسع المجال للحديث عن جوانب كثيرة منها .

أما فارسنا اليوم .. فهو الفنان الأمريكي الأسطورة : فردريك ريمنجتون Frederic Remington . ونادرا ما تجد متحفا أو قاعة عرض أو مؤسسة حكومية في كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية دون أن تزهو هذه المحافل الفنية باقتنائها لبعض أعمال ريمنجتون .. ولعله الفنان الوحيد في القارة الأمريكية الذى وهب حياته كلها لرسم الحروب القبلية وحياة الغرب المغامر وغزوات الهنود الحمر. وتسلط الأمريكي الأبيض إزاء جماعات الهنود المسلحين .

وإن كان الفنان قد أظهر في لوحاته هذه الجماعات وهم لا يجيدون إلا لغة القتل والغدر والتوحش والكر والفر والانقضاض على الرجل الأبيض المتحضر .. مما يوحى بالتعاطف معه والحقد على (الهمجيين) المسلحين .. إلا أن فردريك ريمنجتون من وجهة النظر الفنية الخالصة .. نجده فنانا لا يبارى .. في أسلوبه ونهجه في تسجيل حياة الغرب والفروسية وحياة (الكاوبوى) الذى يلعب بالنار ويركض دائما خلف القطيع .. سواء أكان هذا القطيع من الخيول والأبقار .. أم من الهنود الحمر الذين يحيلون حياة الغرب إلى مسرح مأساوى رهيب !

أحب ريمنجتون أجواء الغرب الأمريكي المبكر ، فكان فنانا فدائيا بكل ما تحمل كلمة الفدائية من معان .. دائم التجول بين الأحراش والبرارى .. وهو يعلم أن الموت يكمن تحت كل شجرة أو خلف كل صخرة وحول كل غدير هناك .. فكلمة الغرب الأمريكي في تلك الأيام (القرن التاسع عشر) تعنى الحرب .. سهام وحراب تأتى مسمومة من فوق ظهر جواد مارق .. أو من خلال أغصان الأشجار المتوحشة الكثيفة .. أو من بين الأكمة والصخور والرمال في الصحارى المتوحشة .

وقد قال تيودور روزفلت ــ أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين ــ عن صديقه الفنان : « إن ريمنجتون سيكون حديث الفن والتاريخ بدون شك .. إنه الجندى المحارب .. إنه الفارس والحصان .. إنه أحد رعاة البقر . وهو الحرب والصراع والنزال في الغابات والسهول والبرارى وأجواء الغرب الغامضة المثيرة التى تزخر بالأخطار والأسرار .. وسيظل في مخيلة الفنانين قاطبة عبر العصور التالية .. لا أشك في ذلك » !!

وبالفعل ، فإن دور النشر في أمريكا ، تطالعنا كل يوم بجديد عن سيرة ريمنجتون وعبقريته ويعتبر الجيش الأمريكي أعماله بمثابة مراجع جريئة للفروسية والمهارات الفردية في صراع البقاء لحروب العصابات في القرن التاسع عشر على أرض الولايات المتحدة الأمريكية المترامية .

وكان من حسن حظ الفنان أن صداقة وطيدة قد ربطت بينه وبين تيودور روزفلت في أواخر القرن الماضى . فكتب روزفلت آنذاك عام ١٨٨١ سلسلة من المقالات نشرها في مجلة Century Magazine يستعيد فيها ذكريات الصبا والشباب عندما كان يعيش في مزرعته مخاطرا في رحلات صيد ومطاردة للهنود الحمر في مناطق الغرب الأمريكي .. ولم يجد روزفلت خيرا من الفنان الذائع الصيت ريمنجتون الذى تخصص في رسم هذه الأجواء الخطرة الملأى بالمخاطر والمغامرات .. فكلفه برسم مقالاته تلك .. ونشأت صداقة حميمة بينهما .. كانت للفنان أقوى دافع له في حياته الفنية التى تألقت وازدهرت بعد ذلك .. عندما سجل ذكرياته ومشاهداته ومعاناته أثناء رحلاته الخطرة إلى الغرب الأمريكي في سيل من اللوحات الخالدة !

يقول ريمنجتون في مذكراته :

كانت رحلاتى وسط هذه المخاطر مغامرة محفوفة بالأخطار .. ولكنها حياة الفنان المتطلع إلى المجهول دائما .. كان ذلك مثبطا للعزائم أحيانا ، ولكن شيئا ما بداخلى كان يدفعنى دفعا إلى هذه المتاهات الغامضة حيث كان الهنود الحمر بحرابهم وسهامهم السامة منتشرين في كل مكان .. ولم أكن أستقر في أى بقعة من تلك البقاع حتى أسارع في مغادرتها خشية الحرب المعلنة دائما إذا ما شعرت قبائل الهنود بأى وافد أجنبى تمس قدمه أرضهم المحرمة .. وعلى أثر مغامرتى المشحونة بالانفعال بهؤلاء المحاربين البدائيين .. ألجأ على الفور إلى أوراقى وألوانى لأسجل هذه الخواطر حية نابضة بهذه الشحنة المتقدة من الحماس والتفاعل مع مشاهدتى المثيرة .





إن أسلوب ريمنجتون المتميز ومعرفته الدقيقة لحياة الغرب الأمريكي .. جعل منه فنانا قوميا تتهافت المتاحف حاليا على لوحاته الخالدة .. لأنها قطع من التاريخ لن يجود الزمان بمثلها .. وأنه (وكالة الأنباء) التاريخية التى سجلت أحداث وطابع الحياة فى صراعهم من أجل البقاء .. ومن كثرة ما رسم الفنان عن هذا القطاع من مراحل التاريخ الأمريكى ، أصبح مرجعا للباحثين والفنانين فى أنحاء القارة الأمريكية ، ولجأوا إليه طلبا للمشورة والنصيحة .

وذات مساء التف حوله جمع غفير من الفنانين يسألونه عن فنه وآرائه ونهجه فى الحياة .. فكانت إجابته :

« إن كل فنان لا بد أن يحظى بقسط من الثقافة والتعليم الأكاديمى ، أما أنا فكان حظى منها قليلا .. ولكنى التزمت الصدق مع نفسى فى التعبير عما أرسمه .. ولذلك اخترت الطريق الصعب .. بل المهلك فى بعض الأحيان .. عشت جو الحرب ، وتمثلت الموت فى كل لحظة .. وأصبحت محاربا لا لكونى أحد الجنود .. ولكن لخوض معارك المعرفة الفنية ومعايشة الأحداث فى ميادينها بين قبائل الهنود الحمر المسلحين والمغامرين والفرسان المطاردين والصيادين وحراس الحدود .. ولما كانت الخيول وسيلتى ووسيلة كل هؤلاء المتصارعين أصبحت فارسا .. واشتد ولعى بالحصان .. وأصبح يملأ علىّ كل حياتى ووجدانى وإلهامى .. وإذا أردتم نصيحة غالية منى أقول لكم : لا تقلدوا أعمال الفنانين الآخرين .. والتزموا الصدق فيما تعملون ليكون لكل منكم أسلوبه الخاص وطابعه المميز .. ادرسوا اللوحات الجيدة للفنانين العظام ، لتستوعبوها لا لتقلدوها تقليدا أعمى .. شاهدوا كثيرا وتأملوا أعمال غيركم .. وتأملوا الطبيعة جيدا .. وارسموا من الطبيعة .. فهي المصدر والمنهل والإلهام والمعين الذى لا ينضب .. والأهم من ذلك : ارسموا .. ارسموا .. ارسموا أى شىء وبكل شىء وعلى أى شىء » .

ويستطرد فردريك ريمنجتون فى نصائحه الغالية للفنانين الشباب والمعجبين بإبداعه :



« الطبيعة هى المعلم الأكبر .. لا تحاولوا أن تقدموا على رسم لوحاتكم بينما أنتم فى حالة تأمل ودراسة واستيعاب لها .. نفذوا أعمالكم بعد أن تنفعلوا بها .. فى تلقائية وبساطة من غير افتعال أو إغراق فى الإضافات والتزويق .. وشيء آخر لابد لى أن أقوله لكم :

لا تبخسوا أنفسكم حقها .. ومجدوا إنسانيتكم .. واحترموا ذواتكم إذا اردتم أن يحترمكم غيركم ..! من كل ذلك ستصبحون فنانين عظماء »

وإذا طبقنا هذه النصائح على أعمال ريمنجتون نفسه .. وجدناه قدوة فى كل ما ذكره من إرشادات ونصائح لمعجبيه من الفنانين الشباب .. فقد كانت أعماله العبقرية هى السهل الممتنع .. ينفذها فى سلاسة ويسر وصدق . ولكن بمعايشة وانفعال واستيعاب تام .. كما أنه استقل بأسلوبه ولم يقلد أيا من الفنانين الآخرين ..

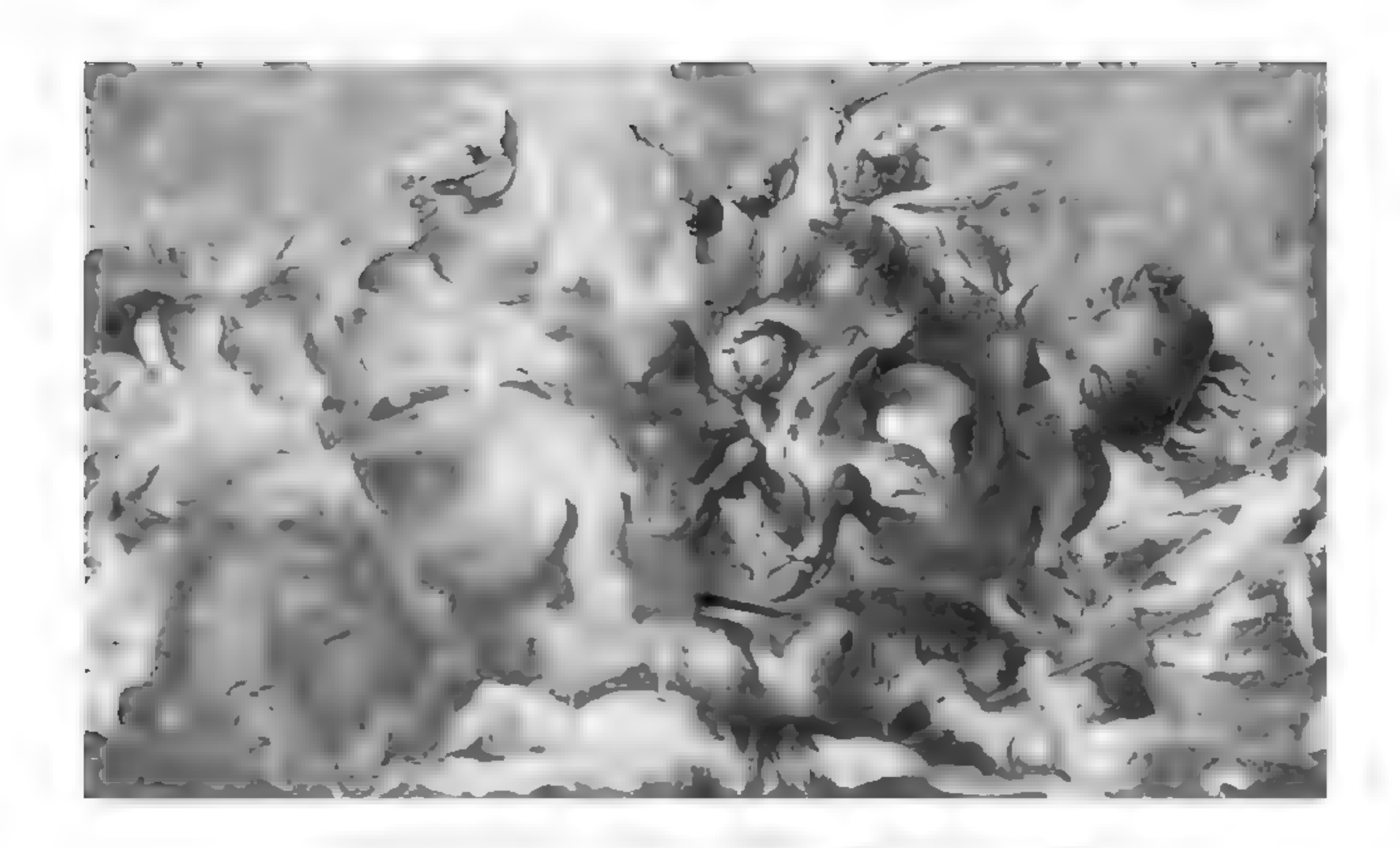
وهو وإن مات فى شبابه عن ثمانية وأربعين عاما (١٨٦١ ــ ١٩٠٩) إلا أنه خلف لنا روائعه التى تعد بالآلاف .. وكانت الرسوم السريعة التى ينفذها فورية من مشاهداته على الطبيعة ، تمثل الغالبية العظمى من إنتاجه الوفير .. وبهذا كان مثلا يحتذى به فى أنه كان يرسم ويرسم أى شيء وبأى شيء وعلى أى شيء كما جاء فى نصائحه الثمينة ..

واليوم .. تتفاخر المتاحف الأمريكية ومجمعات التحف والتراث العالمية بمقتنياتها من أعمال فردريك ريمنجتون .. حتى ولو كانت رسوما سريعة (اسكتشات) رسمها فى دقائق معدودة .. ولكنها مشحونة بالعاطفة الجياشة والانفعال والحيوية .. وهكذا عاش فناننا المغامر وسط الصراع المسلح والأهوال والمخاطر والحراب والرماح .. وخلف روائعه الفنية نشم فيها رائحة البارود .. ونسمع وقع حوافر القطيع وصهيل الجياد .. ونشعر ــ كما شعر ــ بالخطر الداهم بين القفار متوقعين فى كل لحظة أن تداهمنا قبائل الهنود الحمر بسهامهم الوجلة المتوحشة !.

إنها عبقرية الفنان الموهوب ذى الشخصية الفذة المميزة،

عندما كان نابليون بونابرت فى إيطاليا يسطر ملاحمه التاريخية الأوربية فى سجل المجد العسكرى .. وقف فى شرفة قصره الريفى القابع عند ربوة جبلية تطل على مدينة « مانتوا » ، وبجانبه جوزفين (الزوجة المتمردة الفاتنة) ، أطل من شرفة القصر وأشار إلى حيث يعسكر جنوده وهم يحكمون الحصار حول « مانتوا » وقال لزوجته : ها نحن على مشارف أحد مواطن الإبداع فى إيطاليا ، إنه « مانتوا » الرائعة ، وطن الشاعر العظيم « فيرجيل » ، وملتقى إبداعات العباقرة من فنانى التاريخ الإيطاليين .. بل إن هذه المدينة الشاعرية اليانعة كانت مهد الإلهام لأشهر فنان عرفه





الشمال الأوروبي « بول روبنز » .

وموضوعنا اليوم يتناول لمحة عن هذا العبقري الفلمنكي الذي تفخر به منطقة الشمال الأوروبي التي عرفت آنذاك في التاريخ باسم بلاد الفمنك (وهي هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج) ، وعن فنه المميز ، وتنتشر لوحاته الخالدة التي تزهو بها متاحف : بروكسل ، ميونخ ، برلين ، درسدن ، اللوفر ، مدريد ، لندن ، أنتويرب وفلورنسا ، وغيرها . وإذا أتيح لأحدنا أن يشاهد إبداعات « روبنز » على الطبيعة ، فإنه ــ ولا شك ــ سيخرج مقتنعا بأنه أعظم الفنانين سيطرة على اللون والتعبير والتجسيد .. وهذا ما عرف عنه في تاريخ الفن العالمي !.

بل إن هناك وصفا شائعا لقوة التعبير عند أى فنان إذ يقال : إنه تعبير « روبنزي » نسبة إلى الطابع القوى الذى اتسمت به أعمال فناننا « روبنز » وقد أطلق عليه معاصروه أنه سيد الفنانين الفلمنكيين على الإطلاق !.

وولد روبنز عام ١٥٧٧ في مدينة « سيجن » ، ثم انتقل في السنة التالية مع عائلته إلى « كولونيا » فظل بها حتى بلغ العاشرة ، ثم استقر في مدينة الفن الشهيرة « أنتويرب » .

حيث تلقى تعليمه وثقافته وتدريبه الفنى .. وقد تعهده في فترة تفتح ملكته الفنية ، ثلاثة من أكبر فنانى المدينة هم : توبياس فيرهجت ، وآدم فان نورت ، وأوتو فان فين .. ولكن أستاذه الأكبر كان شغفه واستعداده الطبيعى للنبوغ ودراسة الحركات والانفعالات وتضاريس الأجسام البشرية وهى في حالة عنفوانها .

وفى سن الثالثة والعشرين ، كان الحدث الكبير عندما سافر إلى مدينة مانتوا الإيطالية ، والتحق بخدمة أميرها الذى قربه إليه ، ونشأت صداقة متينة بينهما أتاحت لروبنز فرصة ذهبية لدراسة فنون عصر النهضة المعجزة .. ونهل من إبداعات روما وروائع الفاتيكان .. تلك القمم الشامخة في عالم الفن على مر العصور .

وقد سجل فناننا في مذكراته أنه كان كثير التأمل والتسجيل والاقتباس ، ولكنه لم يفعل ذلك حبا في التقليد ، بل دفعه إليه شغفه بالبحث والتحليل والتنقيب ، ومن كل هذه المناهل ، اتسمت أعماله بطابعها الخاص ، واستحدث لنفسه مدرسة فنية عرفت باسمه في تاريخ الفن الرفيع !

وفى بروكسل ، حيث طابت له الإقامة بعد ذلك ،





تزوج عام ١٦٠٩ واستقر فى قصر فسيح كان بمثابة مدرسة دائبة البحث والممارسة الجادة الراقية ، تخرج فيها أساطين الفنانين الفلمنك من أمثــال : فان دايك ، كورن ، جان هوك .. وكثير غيرهم .

وقد عرف عن « روبنز » أنه كان يرسم أكثر من عشر ساعات كل يوم ، حتى أمكن حصر نحو ألفى لوحة من أعماله الباقية حتى اليوم فى المتاحف العالمية ! .

أما صلته بلوحات الحرب والنزال .. فترجع إلى علاقة الفنان وصداقته الوطيدة بأمير مدينة « مانتوا » الإيطالية التى تحدثنا عنها .. حيث أوفده الأمير على رأس بعثة الشرف التى تحمل الهدايا والتحف النادرة إلى صديقه « فيليب الرابع » ملك إسبانيا .. وأعــجب الملك بشخصيــة الفنــان وعبقريته .. وطلب منه أن يكون مستشاره ومساعده فى الشئون السياسية .. ورسامه الخاص فى الوقت ذاتـه .. وكلفه بمهمة صعبة : فقد كانت الحرب بين إسبانيا وإنجلترا وشيكة الوقوع ، وكان اندلاعها بين الدولتين متوقعا بعدما تأزمت الأمور بينهما لأسباب ليس هنا مجال لسردها .. فاستعان فيليب بالفنان ليكون رسول سلام إلى تشارلس الأول ملك إنجلترا .. وقد عرف عن « روبنز » أنه كان ذا مهابة وشخصية فذة ، واسع الثقافة ، خبيرا بعلوم النفس والتاريخ واللغات ، ملما بدقائق وخفايا السياسة الأوربية آنذاك .. فاستطاع الفنان البلجيكى أن يضع أسس الصلح بين البلدين فى تقرير قدمه إلى الملك الإنجليزى .. وأرفق به لوحة ضخمة عكف على رسمها (وهى لوحة شهيرة فى تاريخ الفن) تمثل « منيرفا » رمز الحكمة عند الإغريق ، وهى تمنع « مارس » رمز الحرب من إشعال الفتنة والفتك بالأبرياء .. ومن الصعب أن ننشر هذه اللوحة لقرائنا لأنها ـــ جريا على عادة روبنز فى معظم لوحاته ـــ تحتوى على الأشخاص مجردين من ملابسهم ، ولكنها خير شاهد على عبقرية الفنان فى مهمته لتوفيق بين البلدين . ومن الغريب أن الملك تشارلس الأول قد أكرم وفادة الفنان الذى صار محور اهتمام البلاط الإنجليزى ومحل تقديره وإعجابه ، ووافق على الصلح !

كان روبنز محظوظا إلى أبعد الحدود .. فقد قربه الملك ـــ بدوره ـــ إليه ، بل واستبقاه ليرسم صوره وصور العائلة .. ومنحه لقب (سير) وأنعم عليه بأعلى الأوسمة والنياشين ! وظن مستشارو الملك أن روبنز سفير وسياسى محترف .. واستغربوا اعتكافه اليومى مكبا على لوحاته وأصباغه وأوراقه .. فسأله أحدهم :

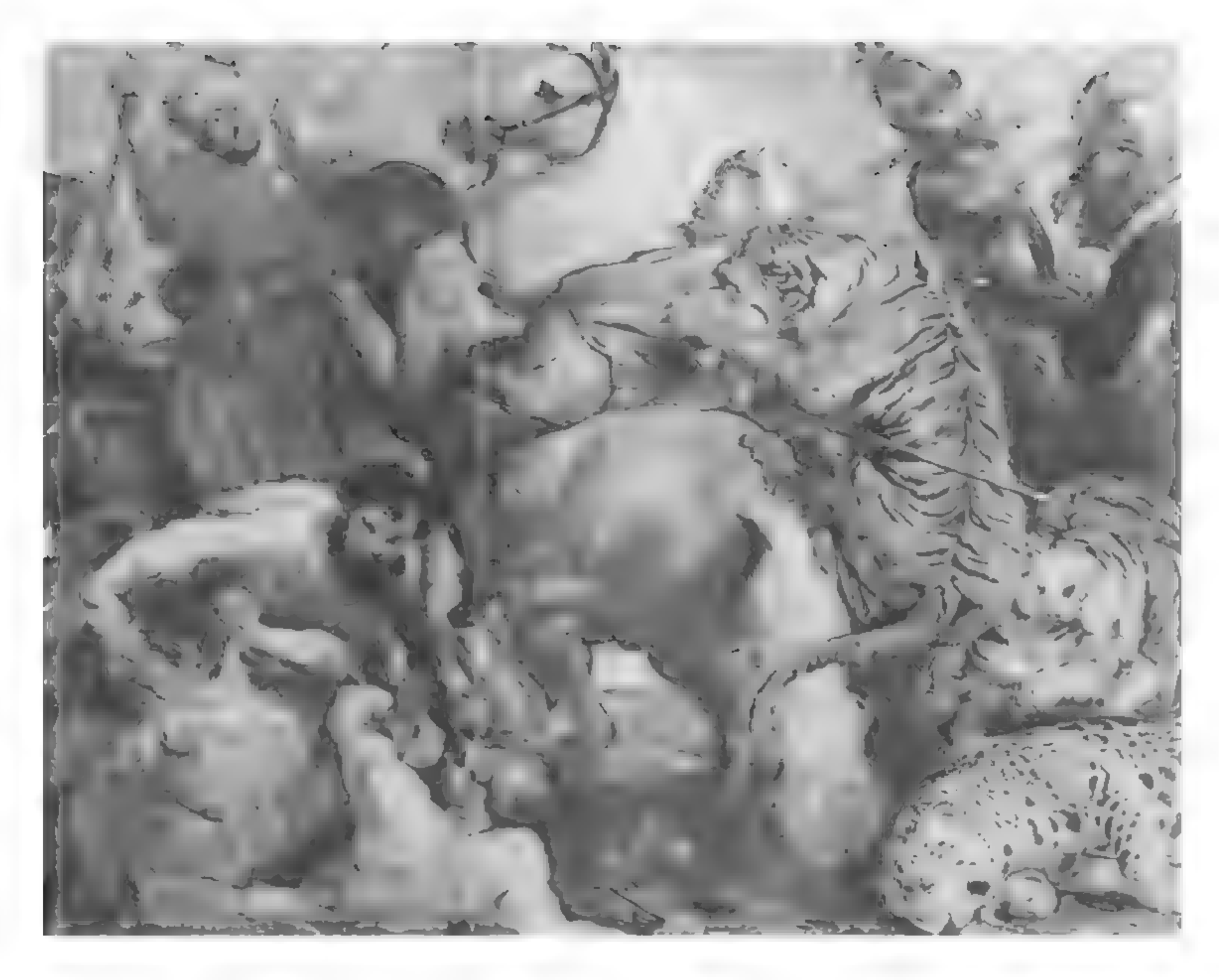
ـــ هل سيدى السفير يلهو بالرسم أحيانا ؟.

ورد روبنز قائلا : « إنما ألهو أحيانا بالسياسة !! » .

وعندما انتهى دور الفنان فى هذه المهمة .. وألف بين القلوب المتنافرة ، شعر بطاقة انفعالية جياشة تضطرم فى نفسه .. وهو وإن تخصص تقريبا فى رسم الملوك والأمراء وفاتنات البلاط فى معظم دول أوروبا .. إلا أن حبه لرسم الحركة العنيفة وتحريك الجموع المتحاربة والأجسام المتصارعة قد ملك عليه وجدانه .. فلجأ إلى هواية غريبة ، وكأنها استعراض لعضلاته على غيره من الفنانين من معاصريه : إنها رسم المعارك الطاحنة على طريقته الفنية الخاصة !

● ● وإذا كنا قد استعرضنا من قبل نماذج مختلفة لفنانين عالميين تخصصوا فى رسم المعارك الحربية التى تدور رحاها فى ساحات القتال .. أو من وحى معارك حقيقية قد حدثت فى التاريخ ، إلا أن روبنز قد رسم المعارك الممتعة من وجهة نظره ورؤاه الخاصة .. فقد لجأ إلى رسم معارك وهمية بين البشر والحيوانات المتوحشة .. أو معارك ميثولوجية من الأساطير الإغريقية والرومانية القديمة .. إذ أنه يحس بهذه الجموع المتصارعة إحساسا وجدانيا ويعالجها تكنيكيا بمنتهى القوة والتفوق وبمنتهى الحرية والاستمتاع الذاتى بعيدا عن كل رقابة يفرضها العقل الواعى والواقع والمنطق (كما يحدث فى المعارك الحقيقية) !

واليوم ، ربما نرى (بمفهومنا ومشاهدتنا المعاصرة) أن هذه الكواسر التى رسمها « روبنز » شىء عادى .. ولكن ، إذا رجعنا إلى القرن السابع عشر وما قبله ، وجدنا أن دراسة الحركة فى مثل هذه الحيوانات وفى أوضاعها التى رسمها



روبنز ، تعتبر شيئا مذهلا .. بل هى الإعجاز الفنى بعينه !
فمن السهولة ــ نسبيا ــ أن يدرس الفنان فى أى عصر
حركات الآدميين وانفعالاتهم ، وربما الخيول كذلك .. أما
النمور والسباع والتماسيح وغيرها من الوحوش وهى فى
صراعها الرهيب مع البشر .. فلم يكن من المستطاع لأى
إنسان أن يراها ، فضلا عن دراستها بمثل هذه الدقة والفهم
العميق الذى نلاحظه فى لوحات روبنز !

ويرجع الفضل فى إتاحة الظروف أمام الفنان لدراسة
نماذجه هذه .. لتلك الصلة الوطيدة بالملوك والحكام ..
وهم الذين تزخر قصورهم بحدائق الحيوانات الخاصة التى
تتسع لمثل هذه الكواسر .. ولذلك نراه وقد استثمر وضعه
المميز وصلاته ومشاهداته الفريدة ودراسته لها دراسة واعية
متأنية ، وأنجز سلسلة من لوحات الحرب الخيالية بين
الإنسان والحيوان .. وصفها روبنز نفسه بأنها حرب رائعة
ممتعة .

كما نراه فى أحيان أخرى وقد استلهم التاريخ القديم فى
معارك قرأ عنها فى الكتب القديمة ، ولكنه فى كلا الحالتين
يستعرض عبقريته فى إبراز العضلات والانفعالات والحركة
العنيفة والتعبير المأساوى الذى ينبض بالحياة .. أى أن
« روبنز » قد رسم الحروب من واقع عالمه هو .. كما
لم يرسمها أحد قبله ، وأضفى عليها طابعه « الروبنزى » الذى
أكسبه شخصيته العبقرية المميزة . وبين الفن والحرب
والسياسة .. يتألق « بول روبنز » كأحد عمالقة الإبداع
العالمى العظام .



(١)

فى أوائل هذا القرن ، بهرتنا بعض مساهمات الفنانين الأوربيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ورأينا كيف تحولوا إلى مقاتلين بوسائلهم الإبداعية ــ جنبا إلى جنب مع جنودهم فى ميادين المعارك الطاحنة .

كان ذلك منذ نحو سبعين عاما خلت ، وهو ما حدث مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية . وإذا كنا نتحدث عن تلك المساهمات فى العصر الحديث .. عصر الكاميرا والعيون الإلكترونية والاستشعار من بعد .. فما بالنا بجهود الفنانين فى العهود الغابرة .. حيث كانت عين الفنان المجردة هى التاريخ .. وهى وكالة الأنباء المصورة ! وقد أوردنا

كثيرا .. وكثيرا من لوحات الفنانين العظام من قبل ، ورأينا كيف كان التاريخ فى يد الفنان .. عبقرية وأمانة والتزاما !

وقد احتفل العالم مؤخرا بمرور أربعين عاما على انتهاء الحرب العالمية الثانية تلك التى ساهم الفنانون فيها آنذاك بالآلاف من أعمالهم وإبداعاتهم الرائعة .. واكتظت الصحف والمجلات والمتاحف ، وحتى الشوارع والميادين والمبانى العامة بلمساتهم الواعية .. فكانت أقوى من دروع الحرب وأكثر دويا من طلقات المدافع وانفجارات القنابل ! وشهد التاريخ بأن ريشة الفنان وبندقية المقاتل كانتا أهم عوامل الكفاح والنصر !

وقبل أن أطالب فنانينا بأن يكونوا على نفس هذا المستوى الذى أظهره فنانو الغرب أثناء تلك الأحداث الجسام ، لا بد أن يتكون وعى عام بقيمة الفن وتأثيراته الفكرية فى مسيرة الشعوب ..

● وكانت لى تجربة فى منتصف الستينات ــ وأنا حديث التخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ــ حيث كانت الكتب والمجلات العربية تزخر بلوحات الصحفية والتسجيلية (وهو ما يعرف بفن الــ Illustration) ، إذ كلفت برسم سجل كامل لأحداث الثورة المصرية وقتها مبتدئا بحرب ١٩٤٨ وقيام الثورة عام ١٩٥٢ .. وماتلاها من أحداث جسام فى منطقة القتال وحرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثى) ، والمقاومة الشعبية وانتصار بورسعيد . وانصهرت فى أحداث تلك الفترة من تاريخنا الحديث ، وأمدتنى مصلحة الاستعلامات والتوجيه المعنوى بالقوات المسلحة بالآلاف من الصور والأفلام والوثائق .. وعلى مدى عامين أنجزت خمسا وخمسين لوحة تسجل وقائع تلك الملاحم الساخنة .. بكل أحداثها الدرامية وأبطالها وشهدائها وتأثيراتها النفسية والاجتماعية .. وطبعتها الدولة فى سجل ملون رائع بعنوان : انتصار بورسعيد .. وظهر (انتصار بورسعيد) باللغات العربية والأجنبية ليوزع فى شتى أنحاء العالم .. تاريخا مقروءا لا يحتاج إلى إسهاب أو إفراط فى الشرح والتعليق .. وأعتقد أننى ــ بذلك الجهد الفنى الصادق ــ قد ساهمت بشيء كبير .. بل لعله من أبرز الوثائق المصورة حتى اليوم فى سجلات الدولة و(الأرشيفات) الحربية.

وبعد طبع ملايين النسخ من هذا المطبوع الوثائقى ، أقامت مصلحة الاستعلامات المصرية ــ آنذاك معرضا







للوحاته الأصلية فى قاعة الفنون بباب اللوق .. ومنها انتقل إلى باقى محافظات الدولة ، وكانت نسخ (انتصار بورسعيد) ضمن الهدايا الإعلامية القيمة التى يهديها السيد يحيى أبو بكر (مدير مصلحة الاستعلامات وقتها) لكبار الزوار ورجال الإعمال من كافة أنحاء العالم ..

● ● وتجربة أخرى ، عندما قمت بعمل لوحات القاعة التذكارية لمتحف (دارة الملك عبد العزيز) بالرياض .. ووجدت نفسى مدفوعا بشغف لقراءة واستيعاب تاريخ الملك والمملكة ، وأعايش الرجال ومسرح الأحداث ومعارك العاهل السعودى مؤسس المملكة الحديثة بكل تفاصيلها ودقائقها ..

كم هو عمل ممتع يزخر بالمعرفة والانفعال والإثارة !

... وتمضى الأيام ، وأذهب إلى إيطاليا فى رحلة دراسية .. وكان أهم ما يشغلنى هناك هو أن ألتقى بأحد الأقطاب العالميين ، الذى تتلمذت على يديه دون أن أراه ، وهو الفنان والتر مولينو Walter Molino .. كنت أحتفظ فى أرشيفى الخاص بمعظم ما تطبعه المطابع الأوروبية من لوحات والتر مولينو .. كان الرجل أسطورة فى مقدرته الفائقة وموهبته الخارقة على رسم أحداث الحرب العنيفة والانفعالات الدرامية وتحريك الجموع المتلاحمة .. ولا أخفى عليكم أننى عندما رسمت لوحات (انتصار بورسعيد) كنت أدرس بإمعان أسلوب هذا الفنان الإيطالى العظيم .. وأعجب بعبقريته ، كما أتعجب لغزارة إنتاجه بشكل يدعو إلى الدهشة والتأمل !

فى ربيع عام ١٩٧٠ التقيت به فى ميلانو .

مركز إقامته بإيطاليا فى بيته الفسيح ، وهو فى الوقت ذاته مرسمه وملتقى المعجبين به من مختلف أنحاء العالم .. وجدته شيخا فى الثمانين .. ضعيف البنية ، ذا لحية مدببة بيضاء ، معروق الوجه واليدين ، يضع على عينيه نظارة ذات عدسات سميكة .. تنفذ من خلالها نظراته الواعية المتقدة لتنم عن ذكاء مفرط وعبقرية متألقة .. وبالرغم من سنة وضآلة تكوينه الجسمانى ، كان خفيف الحركة وافر النشاط إلى حد الغرابة !

كان الناس فى كل مكان يتعجبون : كيف يقوى فنان فى مثل سنه على إنجاز هذا الكم الهائل من اللوحات الحركية

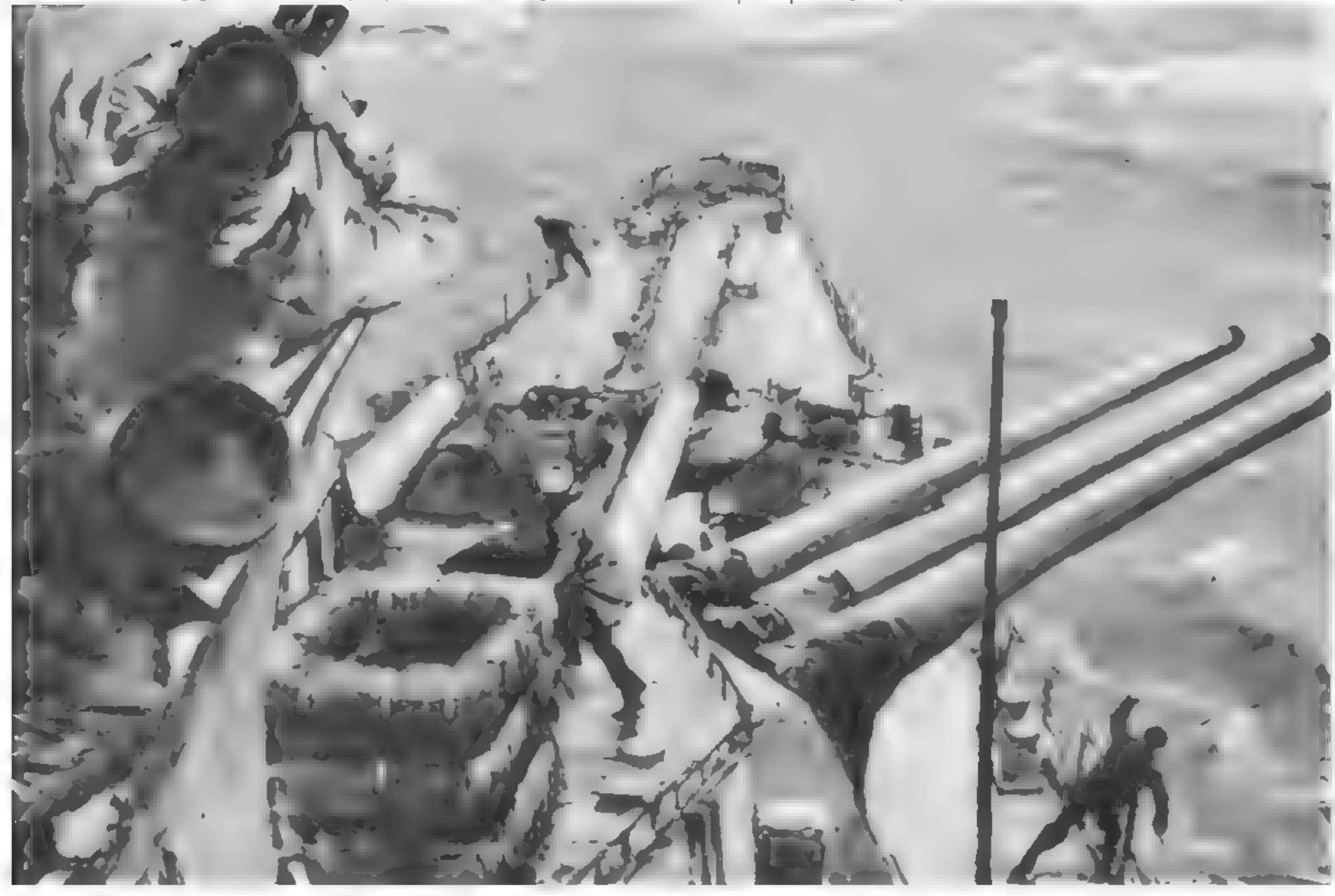
ولا سيما ما يتعلق منها بالحرب وأحداث العالم الساخنة ؟! لقد عاش الحرب العالمية الأولى فى مطلع شبابه ، والحرب العالمية الثانية ، فى فترة نضوجه وتكامل عبقريته .. وقد رسم أحداثها بكل دقائقها ، حتى إن مجلة Domenica del Corriere ، وهى أشهر المجلات الإيطالية التى عنيت بنشر لوحات مولينو عن الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل السبعينات ، قالت عنه : إننا نستطيع أن نؤرخ لهذه الحرب يوما بيوم من خلال إبداعات والتر مولينو ! فقد كانت أعماله تأخذ طريقها إلى المطابع فور الانتهاء منها ، وبتنسيق خاص ، تنشر تباعا فى عشرات من الصحف والمجلات والمنشورات الإعلامية فى وقت واحد ! وبين فترة وأخرى ، تقوم دور النشر بجمعها وتبويبها لتطبع فى ألبومات فنية تحمل اسم الفنان الكبير . هذا ، عدا مئات اللوحات الأخرى التى يسجل فيها الحوادث اليومية المفعمة بالتعبير الدرامى.

●● فى طريقى إلى مرسمه كنت أتساءل : مهما توفرت كل إمكانات العبقرية لديه ، كيف يقف على تفاصيل ودقائق هذا الفيض من اللوحات المعجزة ؟ وجاءنى الجواب بعد ترددى عليه لعدة مرات ، حظيت فيها بمعرفة ما لم أحلم به من قبل ! وقد سجلت مشاهداتى وأحاديثى معه فى مقالات نشرت فى حينها فى أكثر من صحيفة عربية .

كان مرسمه عالما مثيرا يموج بالحركة والحيوية .. عشرات من مساعديه وتلامذته منهمكون فيما كلفهم به من دراسات وتخطيطات .. يتحرك « مولينو » بينهم فى نشاط ابن العشرين ، يلقى إليهم بتعاليمه . وإرشاداته وملاحظاته ، يحيط به وبهم فى أبهاء القاعة الفسيحة ، عشرات من النماذج والمعدات والأسلحة والأزياء العسكرية .. وفى الأركان رأيت أكداسا من الصور الفوتوغرافية والرسوم السريعة (الاسكتشات) .. كل ذلك يمثل فوضى فنية محببة إلى نفس الفنان وكأنها إلهام للقرائح الملتهبة المبدعة !

الإمكانات المذهلة

... انتظرت حتى انتهى الفنان الشيخ من عمله فى الفترة الصباحية ، وقادنى الرجل بكل الحب والتواضع إلى معمل التصوير الضوئى الملحق بمرسمه ، رأيت به ثمانية من الفنيين المهرة بمعاطفهم المعملية البيضاء .. منهمكين فى عمليات تحميض وطبع مئات من الأفلام التى صورت لتوها وأرسلت



إليه على عجل ، تحمل فى طياتها أحداث العالم الساخنة ساعة بساعة .. صورت بالهليكوبتر من الجو ومن الأرض ومن الماء .. من كل زواياها وبكل تفاصيلها . ثم توضع الصور بين يديه لينتقى منها مادة لوحاته كأساس علمى موضوعى .. ثم يأتى دوره الحاسم فى إضفاء الحياة على لوحاته ذات الشحنة العاطفية النابضة المعبرة !

أما مستشاروه العسكريون وغير العسكريين فيترددون عليه بصفة دائمة للشرح والتوضيح واستبيان ما خفى من التفاصيل والمضامين ! وكثيرا ما يلجأ « مولينو » إلى غرفة الأفلام الوثائقية السينمائية بأرشيفه الخاص .. لكى يستوعب الأحداث ويعيش فى الواقع وينفعل بالحركة أكثر وأكثر . أما مساعدوه ، فهم بين دور الوثائق ومخازن الجيش وغيرها من الجهات ، لإمداده بالمعلومات والنماذج والأوسمة والأسلحة والملابس العسكرية وما يحتاج إليه من التفاصيل اللازمة لإنجاز لوحاته .

... إمكانات مذهلة يملكها الفنان الكبير بلا حدود ، أو وضعها المسئولون تحت تصرفه ليقوم بمهمته الفنية التاريخية على أكمل الوجوه ! وهنا بدرت إلى ذهنى تساؤلات ملحة : هل توفرت له كل هذه الإمكانات لأنه « والتر موليتو » .. فنان أوروبا الكبير ، أم لأن اقتناع المسئولين برسالة الفن وقيمة العطاء الإبداعى .. فوق كل اعتبار ؟! أم ترسخت مكانة الفن فى وجدان الشعب الإيطالى وهو على أرض الأمجاد الفنية .. مهد أساطين عصر النهضة من عباقرة التاريخ العظام ؟.. وأخيرا .. أم لأن هذا السلوك هو سلوك حضارى طبيعى يساهم فيه الفنان بواجبه القيادى نحو أمته وتراب وطنه ؟ وهذا يؤكد أن الالتزام الضميرى يجب أن يأتى من داخل الفنان لعطاء منطقى يتفق مع وعيه وقناعته وأصالته !

ومن الغريب أننا نحن العرب وسنوات تاريخنا مثقلة بالكفاح وبالأحداث الجسام .. ويئن واقعنا الحديث تحت وطأة الأعباء والقهر والتسلط .. نرى أن حياتنا أصبحت ملحمة متجددة من المعارك فى كافة الجبهات حربا أو سلما أو ما بينهما .. نرى أنفسنا دائما مشدودين للحرب .. حرب أعدائنا فى ميادين القتال (وهى أهون الحروب) ، وحرب أنفسنا (وهى أعتاها) . وحرب التوجس لما تضمره الأيام !

وهنا لا بد أن يتمثل فى خاطرنا سؤالنا عن دور الفنان العربى فى مجتمعنا .



• أما زال فى برجه العاجى وكل مشكلته أن يقنع الناس بأسلوبه الغارق فى الذاتية ؟

• أما تزال كلمة (التجريد) تحتل كل اهتمامه ومحاوراته ومجادلاته مع أقرانه ؟

• هل الفلسفات العقلانية المعاصرة ، وقضيـة اللاشعور وما وراء الطبيعة ، والإحساسات المستترة ، وما يكمن فى العقل الباطن .. هى شغله الشاغل ؟

• هل أحلام السيريالية وعالم الفنان الخاص هى ما يقود به شعبه إلى العوالم الإبداعية المرجوة ؟

• • • أقول بكل الحب والمودة لفنانينا العرب .. إن هذه الأبحاث التى ذكرتها يجب ألا تثنينا أبدا عن واجبنا نحو شعوبنا وأمتنا .. ومشاركتنا القومية والوطنية .. نخاطب الناس بلغة يفهمونها فى غير تعال أو ترفع .. فليس فى الفن قديم أو مستحدث إلا فى الأنماط والقوالب فحسب .. ولكن المضامين ستظل خالدة مهما كان أسلوبها ومعالجتها .. ولذلك أؤكد أننا مقصرون فى حق أمتنا ، وقد انسلخنا عن تاريخنا وأصالتنا ومسيرة كفاحنا .. إننا نفتقر افتقارا شديدا إلى الفنان الذى يواكب أحداث مجتمعة ، ويسجل آلامها من وجهة نظره المبدعة .

إننا فى حاجة إلى حركة فنية منظمة (كما هو الحال فى معظم بلاد العالم) تعنى بطرفى المعادلة الفكرية : الالتزام الضميرى نحو المجتمع ، والتعبير الوجدانى الخاص لإرضاء ذات الفنان !

إن تاريخنا وكفاحنا المرير الطويل ، وقد كتبا بألفاظ بلاغية رنانة ، يفتقران إلى اللمسة الفنية والتوضيحات المصورة الواعية التى تخاطب العين والعقل والوجدان .

أين متاحفنا الحربية التى يجب أن نرى فيها تاريخنا وملاحمنا المستمرة ؟

أين مطبوعاتنا التى تحكى هذا التاريخ مبسطا ومصورا كما يفعل العالم المتحضر ، وكثير من دول شرق آسيا والعالم الثالث على السواء ؟

ولعل قارئنا الآن يتبين بسهولة لماذا نلجأ دائما إلى المراجع الأجنبية المصورة حتى فيما يتعلق بتاريخنا وواقعنا العربى الإسلامى ؟ والسبب واضح ، فهو يكمن فى قصور حركتنا الفنية التى يعوزها الشعور بالانتماء ، ولا ينقصها الإحساس بالتفرد والذاتية .



فى أواخر القرن الثامن عشر ، قامت ضجة مثيرة فى أوروبا أخذت تتسع موجاتها وتتعالى أصداؤها .. حتى إذا ما وصلت إلى بريطانيا (العظمى) ، تحولت إلى فضيحة :

إذ كيف يقع قائد أساطيل الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس فى غرام إحدى الفاتنات ؟!

وبينما كانت صيحات الاستنكار تهز البرلمان البريطانى ،



ويعيش الناس فى ترقب لما يشرعه المشرعون من أساطين القانون والسياسة ورجال الحرب إزاء هذا الغرام الجارف الذى أضحى حديث العالم بأسره ، كانت تجرى على صفحة الماء الناعسة — فى نفس الوقت — أحداث أخرى فى قارب حالم يتهادى فى رحلة ليلية من مدينة « نابولى » إلى جزيرة « مالطة » .. وكان بطلاها « سير أدميرال نيلسون » قائد البحـرية و«الليدى هاملتون» أسطورة الجمال، ونجمة لوحات الفنان البريطانى العالمى « جورج رومنى » ! وفى جوف الليل تسللت لآلى القمر الفضية فافترشت سطح اليم تحتضن أسرار القلوب الهائمة ، فى سكنة الكون ، بعيداً عن



أضواء الشهرة ، وعن صخب المعارك الطاحنة ، وعن الأصوات الهادرة الدائــرة فى برلمان الإمبراطوريــة العظمى .. صاحبة السطوة والنفوذ والتقاليد العريقة !

وألقت الفاتنة برأسها على صدر البطل المثقل بالأوسمة والنياشين والأسرار .. وتركت لذاكرتها التى أنعشتها نسمات البحر ، أن تستعرض ماضيها المثير !

وها هى ذى تتغلغل فى أعماق حياتها .. وترنو إلى الأفق عبر الكون الفسيح !

افتر ثغرها عن بسمة وادعة ، وهمسة وسنانة تذوب حروفها على شفتيها السكرى : « لولا ريشته المبدعة لما كنت فى هذا القارب مع أعظم شخصيات العصر .. مع نيلسون ! إننا سنعبر رحلة الحياة كما يعبر القارب رحلتنا هذه ، ولكن الفنان باق فى روائعه على مر العصور وعبر القرون القادمة .. وسيقترن اسمى باسمه فى أروقة المتاحف .. ويوما سيتسامى التاريخ وهو يرفعنى إلى الذروة ليقترن اسمى بقائد النصر .. بأعظم شخصية فى تاريخ الحروب البريطانية المظفرة » .



العثرات والطفرات

وبدأت البسمة الواثقة .. تتـــلاشى .. وانسدلت الأهداب المطرقة ، لتحجب الرؤيـة خارج نفسهـا المكدودة .. ولتغوص فى أعماقها تعتصر الألم الغائر فى طيات السنين .. وتشبثت بالبطل وكأنها تخشى على نفسها من مجابهة الذكريات المريرة وحدها .. وأخذت الفاتنة فى استعادة أيام طفولتها التعسة .. إنها صور باهتة لا تستطيع أن تتبين معالمها .. أو لعلها لا تريد ، أو أن شيئا بداخلها يأبى أن يبعث تلك الذكريات الأليمة !

اهتز القارب الحانى بين الأمواج الراقصة ، فأعادت إلى ذاكرتها على الفور كيف اعتصرت قلوب الرجال وهى الصبية ذات الستة عشر ربيعا ، وكان اسمها « إما ليون » Emma Lyon قبل أن تصبح « الليدى هاملتون » زوجة السفير المهاب « السير وليام هاملتون » سفير الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس صاحبة النفوذ والسيطرة العالمية وسيدة البحار والمحيطات .. بريطانيا العظمى !

قصة طويلة .. طويلة ، عاشتها « إما ليون » بين ركام الضياع وتحت أقدام الساهرين والسامرين والليالى الطويلة الموحشة .. ويسدل الستار على تلك الفصول الدرامية .. وتفتر شفتاها عن بسمة نشوانة .. وهى تتذكر كيف وصلت بذكائها ودهائها إلى قصر أحد الأثرياء من وجهاء لندن هو « تشارلز جريفيل » ، وقد هام بها ، وجعل منها سيدةً لقصره ! ولكن الأقدار أغدقت عليها بأكثر مما حسبته أقصى أمانيها .. لقد امتدت إليها يد « جريفيل » من قبل وانتشلتها من قاع المدينة .. وها هى ذى تدفع بها لتوصلها إلى قمة المجد .. وإلى صفحات التاريخ !

ففى سهرة مترفة ناعمة .. اتخذت (سيدة القصر) مجلسها بين السُّمار .. كدرة تتلألأ فى تاج النعمة ، والتف حولها الجمع المبهور بجمالها ، وفى أبهاء القصر تسبح نغمات الموسيقى الكلاسيكية الحالمة كأطياف تتألق فى ومضات نعسة .. وتتعطر بأريج الأزهار ، وعطر المكان .

وفى هذا الجو الشاعرى الملهم ، دخل فنان بريطانيا الأشهر « جورج رومنى » أبرع رسامى عصره !



ذكريات داعبت وجدان الفاتنة .. وهى فى زورقها العائم ، حيث تتكسر الشقائق الفضية تحت الزورق السابح بين الأمواج الحانية .

أسرع تشارلز جريفيل إلى صديقه الفنان .. يبالغ فى حفاوة استقباله وحرارة الترحيب به بما هو أهل له .. وانعقدت عيون الحاضرين وخاصة من النساء على « رومنى » صاحب اللوحات الرائعة والشهرة العالمية الواسعة .. ووقع بصره عليها !! إنه الفنان الذى ينقب عن الجمال من خلال نظرته الثاقبة الفاحصة ! وقاد « جريفيل » سيدة القصر لتتعرف على « رومنى » وجها لوجه .. ومد الرجل كلتا يديه ليصافحها . وتأملها الفنان وانفرجت أساريره ، وارتسمت على شفتيه كلمات غير معلنة ! وشعرت الفاتنة بأن « الفرصة » هذه المرة ستضعها فى أطر من ذهب تزدان بها متاحف العالم ! وهمس « رومنى » فى أذن مضيفة .. واستسلم جريفيل ، وتصنّع الرضا .. وسلّم بالأمر الواقع ! ولم يكد أن ينتهى الحفل مع نسمات الفجر الباردة .. حتى كانت . « إما ليون » فى طريقها إلى مرسمه .. ولتبدأ الحكاية .

ما كانت الفاتنة لتحلم بقربها من هذا الفنان الكبير .. إنه (وكالة الأنباء) فى ذلك العصر ، يُذيع أسرار الجمال ومواطن السحر على العالم بأسره من خلال إبداعاته الرائعة .



عادت إما ليون إلى تشارلز جريفيل .. بعد أن رسمَ لها « رومنى » عشرات اللوحات .. مستلهما فيها صورتها الشخصية . وحدث أن وفد إلى بيت « تشارلز » زائر كبير من رجالات بريطانيا المرموقين ، هو عمه « السير وليام هاملتون » .. ففوجئ الكهل الوقور بوجود لجمة لوحات رومنى فى بيت ابن أخيه .. فتقرب إليها علّها توليه شرف صداقتها ، وقد تمثلت فى خاطره أطياف التاريخ وهى تعبث بغلالات « هيلين » و« جولييت » و« الموناليزا » ، وتمادى فى أحلامه ، وتصور أنها تقاسمه حياته الخاوية .. وصادفت هذه الأمانى هوىً فى نفس « إما ليون » وحلمت — هى أيضا — بالتربع على عرش السلطة والرفاهية !

وتم التراضى .. ورحلت معه إلى « نابولى » حيث كان مقر السفارة البريطانية .. واتفقا على الزواج فى حفل مهيب يليق بشهرة الجمال ومكانة السياسة .. وأصبحت « إما

ليون » زوجة تحمل الاسم الكبير : الليدى هاملتون .. وهو ما عرفت به فى التاريخ ! ولا غرو أن نقرأ اسم Lady Emma Hamilton تحت لوحاتها فى المتاحف .. وهى اللوحات التى رسمها لها « رومنى » قبل أن يظهر السفير وليام هاملتون فى حياتها .

الجمال والفن والحرب

إلا أن شهرة (الليدى) — بعد حادثة بعينها — قد فاقت كل ما عداها من قبل ! .. وإلى أن تصل إلى هذه الحادثة .. نستعرض سويا حياة زوجة السفير فى عهدها الجديد : استثمرت « إما » شهرتها وجمالها وذكاءها فى كسب صداقة وثقة شخصيات المجتمع الإيطالى والأوروبى بوجه عام .. وأصبحت الصالونات الأرستقراطية تحرص على دعوة السفير البريطانى وزوجته الحسناء وسط مظاهر البذخ والترحيب والفضول لاختلاس النظرات إلى فاتنة لوحات « رومنى » ذات الشهرة العالمية .

وتقول الملفات السرية لأساطيل الحرب البريطانية أن الليدى هاملتون قد أمدت قيادة الحرب بمعلومات على أكبر جانب من الأهمية ، بفضل علاقاتها واتصالاتها بمصادر المعلومات فى إيطاليا وأوروبا كلها .. وأن شهرتها العالمية — كنجمة لوحات رومنى — قد جعلت مثل هذه المعلومات الخطيرة ترد إليها فى سهولة تامة ! وقد ساعدت بريطانيا فى السياسة والتخطيط للمعارك ، كما ساعدتها كذلك فى وقت السلم . كما أنها استطاعت أن توفر احتياجات القيادة للأسطول البريطانى قبيل القيام بالحملة على الأسطول الفرنسى فى موقعة « أبى قير » الشهيرة غرب مدينة الإسكندرية .. وكان هذا فى عام ١٧٩٨ . وتحكى الملفات الكثير ، والكثير عن مآثر الفاتنة الأسطورة فى الحرب والسلام !

وبلغت الليدى ذروة جمالها كزهرة اكتمل تفتحها .. فقد بلغت الثلاثين من عمرها .. ووقع الحدث الكبير المثير .. واهتز البرلمان الوقور .. واجتمع الوزراء والمشرعون ورجالات الحرب فى حلقات ثائرة هادرة .. تهدد وتتوعد .. ذلك لأن الأمر يتعلق بسمعة بريطانيا العظمى .. الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

○ ○ ○

ألقت البارجة الإنجليزية « أجا ممنون » مراسيها فى خليج نابولى .. وأطلقت المدفعية طلقات التحية لهبوط قائد الأساطيل البريطانية .. وافترشت الأرض تحت قدميه بالبسط والزهور .. وهبط « هوراتيو نيلسون » إلى البر .. واستقبله سفير بلاده فى نابولى « السير وليام هاملتون » ، واصطحبه إلى بيته عملا بالتقاليد البريطانية العريقة .

وكان اللقاء المنتظر !

فقد فوجئ القائد بأن زوجة مضيفة العجوز هى فاتنة لوحات رومنى التى طالما سمع عنها وبهره سحرها وجمالها ! واستحضر الرجل كل ما يكمن فى أعماقه من رزانة القائد وصلابة العسكرية البريطانية .. وحياها بكل أدب وكياسة .. وبالغت هى بدورها فى الترحيب به .. إلا أن شعورا غامضا كان يتملكها عندما تتحدث إلى (الجنرال) الهادئ الآسر الواثق .. وكأنه يلقى بتعليماته من فوق منصة القيادة فى ملاحمه المظفرة ! فلم تتعود الفاتنة على أن تجابه بمثل هذا الجمود من أى شخص فى العالم .. حتى ولو كان نيلسون !

ولم تنس للحظة واحدة أنها دائما سيدة الموقف ... واحتدمت فى نفسها معارك مستعرة : إنها لا تدرى لماذا سيطرت عليها شخصية الجنرال ، واستحوذت على تفكيرها بهذا الشكل المثير ؟! واعتملت فى وجدانها صراعات صامتة ، فأضمرت شيئا ادخرته لمعركة قادمة آتية لا محالة .

وحان وقت الرحيل .. وودعته بابتسامة هادئة .. ولكنها توارى خلفها كلمات صامتة .. أجلتها لليوم الموعود .

ومرت الشهور .. والسنوات .. وتوالت انتصارات القائد الأسطورة .. وتسيد بأساطيله البحار فى كل الأرجاء .. وكرمت بريطانيا قائدها المغوار فمنحته لقب « الأدميرال السير نيلسون » ، وأصبح الاسم الكبير ملء الأسماع والأبصار .. وطاف الإنجليز بأنحاء مدنهم فى مظاهرات حاشدة لتكريم قائد النصر العظيم .. كما قادت « الليدى هاملتون » جمعا غفيرا فى شوارع نابولى .. تقدمته فى عربتها الرسمية وقد علقت فى مقدمتها لافتة كبيرة تحمل تلك الكلمات التى جعلتها بريطانيا شعارا لها آنذاك : (نيلسون والنصر العظيم) .

وبعد مضى خمس سنوات على الزيارة الأولى .. عاد البطل إلى نابولى مرة أخرى .. وخرجت جموع الشعب الإيطالى تتقدمها الملكة « كارولينا » والليدى هاملتون لاستقبال نيلسون . وكانت المفاجأة المذهلة ! لقد وقف البطل بين ضباطه وقد فقد ذراعه اليمنى فى معركته الأخيرة التى مازال دخانها يملأ الآفاق .. وكانت بقع الدم القانى مازالت تلوث سترته كأوسمة علقت على صدره منذ لحظات !

وبصعوبة ، سيطرت « الليدى » على حواسها من هول المفاجأة ! وبالغت فى الترحيب به وقادته فى حفاوة بالغة إلى البيت الكبير .. وأخذت على عاتقها السهر على راحته ومعالجته وتمريضه ، كواجب قومى يرقى إلى مستوى تضحيته الشجاعة ! وحبس الزوج الغيور انفعالاته .. وتصنع هيبة السفير الجليل .. وكتم غيظه حتى لا تهتز صورته أمام ضيفه البطل الجريح .. وكيف لا ، وقد أصبح أعظم شخصية بريطانية ملء الأسماع والأبصار ! ولم تفارق الحسناء بطلها للحظة واحدة .. وبدأت لعبة الشراك الناعمة ! وبعد كرٍّ وفر .. استسلم البطل .. وبدأت القصة تُتلى على أسماع العالم .. وتفرد لها صفحات التاريخ .

ولم يتحمل السفير الشيخ أكثر من ذلك .. فمات كمداً عام ١٨٠٣ ، وأصبحت الأرملة الحسناء حرة طليقة تخطط مع القائد لمستقبل جديد !

ويهيم البطل بفتاته ، ويقرر أن يصحبها فى هذه الرحلة البحرية فى الزورق الحالم الذى يتهادى على شقائق الأمواج الفضية .. من نابولى إلى مالطة للاتفاق على الزواج !

وانتهى شريط الذكريات فأفاقت من تلك الغفوة الطويلة وهبطا إلى الجزيرة الوادعة .. ليبدآ حياتهما ولتقذف هى بماضيها فى عرض البحر .. وقد أحست بأنها تولد على هذه الجزيرة من جديد .

وتمضى الأيام .. وما أسرع ما تمضى الأوقات السعيدة الهانئة .. وصحب نيلسون فاتنته إلى بيته فى « ميرتون » ، ليستعد لخوض المعركة الحاسمة التى عرفت بموقعة « الطرف



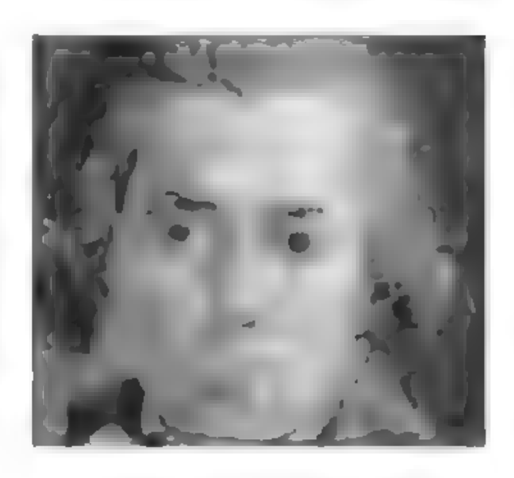


الأغر».. ويحس القائد بأن شبحًا رهيبًا ينتظره هذه المرة.. وقبل أن يودعها نظر إلى صورتها المعلقــــة فى صدر القاعة.. تلك التى رسمها لها «رومنى» وأخذ يناجيها بهمس حزين: «أعدك يا حبيبتى بأن تكون هذه آخر معاركى، فقد سئمت الحرب وعشقت الحب والسلام».

وكانت بالفعــــل آخــر معاركه، فقد لقى حتفه فيها مختتمًا سجله الحافل بالأمجاد والبطولات الأسطورية. ومن العجيب أن نيلسون كتب آخر رسائله لـ «إما» أثناء الاستعداد لمعركة الطرف الأغر يوم ١٩ أكتوبر ١٨٠٥ وكأنه قد أحس بدنو أجله بل بنهايته فى هذه المعركة التى دارت رحاها يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥.. قال فى رسالته إليها:

«.. لو أنى كنت أثاب على تلك الخدمات الجليلة التى قدمتها لبــــلادى لطلبــــت ما شئت، ولكنى على البعد، أودع ليدى إما هاملتون أمانة فى ذمة ملكى ووطنى ليوفروا لها ما يكفى ويزيد، لكى تحيا حيــــاة تناسب مقامهــــا ومركزها..»! وهنا تساءل المؤرخون: هل كان موتــــه انتحارًا أم قضاء وقدرًا؟ ولماذا جعل صدره بكل ما يملك من أوسمة.. هدفــــا لرصاص الفرنسيين وقتها؟

ولم تكن هذه هى نهاية البطل وحده.. ولكنها كانت بداية النهاية لإحدى فاتنات الفن والحرب والتاريخ!



فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ظهر فى فرنسا (مركز الإشعاع الفنى والحضارى آنذاك) عدة مذاهب فنية كرد فعل للأسلوب المترف الناعم الذى ساد فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، والذى عرف باسم « الروكوكــو » أو (طراز لويس الخامس عشر) وكان بمثابة فن متعة ورقة وبذخ هدفه إدخال السرور على المجتمع الفرنسى بعد الحروب التى سادت أوروبا فى فترة حكم لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ــ ١٧١٥) . وكرد فعل لهذا التيار الغارق فى البذاخة والنعومة ، ظهر مذهب فنى جديد يستمد فلسفته ومقوماته من التراث الإغريقى الرومانى القديم ، أى ينهل من الكلاسيكيات المثالية الرائعة التى تتسم بالرصانة والوقار والرشاقة والجمال الرياضى .. وهى ما تميزت به الفنون الإغريقية والرومانية القديمة .

وكانت هذه الأفكار الجديدة مشجعا للطبقة الوسطى وجموع المثقفين لأن يثوروا على طراز « الروكوكو » الذى زال بنجاح الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ .

وتصادف فى هذه الآونة أن جرت حفريات أثرية كشفت عن كنوز من هذه الفنون المثالية ، ولا سيما الآثار التى عثر عليها فى « هيركولانوم Herculanum » و « بومبيى Pompei » فى إيطاليا عام ١٧٤٨ وفتحت أبصار العالم على الاهتمام بحضارات الإغريق والرومان القديمة الجادة . فأقبل الأثريون ومؤرخو الفنون على الكتابة والتقييم والإشادة بهذه الإبداعات التراثية التى تعتبر أصل التذوق الفنى الأوروبى والغربى بصفة عامة .. وقامت حركة نشطة لفتح المعارض وتشييد المتاحف وجمع التحف الأثرية ، كما ازدهرت حركة بيع وشراء اللوحات وتشجيع الفنانين المجيدين ، وتألق حركة الإبداع الراقى ، وكانت أهم هذه المراكز الفنية موجودة فى باريس .. العاصمة الفرنسية .

وقد أطلق على هذه الحركة التى تعود إلى المناهل القديمة اسم (الكلاسيكية الجديدة) .. وأراد نابليون بونابرت أن يتقرب إلى الشعب ولا سيما الطبقات المتوسطة والمثقفة ، فشجع هذه التيارات والأفكار الجديدة .. فازدهرت الفنون بكل فروعها عمارة ونحتا وتصويرا .

وكان ميدان التصوير أكثر ميادين الفنون التشكيلية استجابة إلى الحركة الفكرية المستحدثة ، وفى الوقت ذاته ، طلب قادة الثورة الفرنسية من الفنانين أن يرسموا موضوعات وطنية مقتبسة من التاريخ والأمجاد والمواقف الرومانية الإغريقية القديمة .. فأخذ الرسامون ينقبون عن مثل هذه المواقف ، وأقاموا حركة ملتزمة فيما بينهم ، وهى الرجوع إلى هذه النماذج الكلاسيكية سواء أكان ذلك فى اختيار الموضوع أو فى أسلوب التنفيذ .. ولذلك أصبح أهم ما يميز مدرستهم الجديدة : نبل الموضوع ، ومثالية التعبير ، ورصانة الخطوط ، وجدية الهدف الإبداعى من حركتهم الوقورة .

وصار رسامو هذه النزعة الوطنية يمثلون الدولة ، ويعبرون عن رأيها الرسمى بلغة الأشكال والألوان ، وظهر العديد من عباقرة الرسامين تحت زعامة الفنان الشهير « جاك لويس دافيد » .

الحرب والمثالية الإغريقية

وإذا تحدثنا عن مركز الإشعاع العالمى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. ونقصد به باريس ، فلا يمكن أن



نكون بمنأى عن روما .. بؤرة الحضارة الرومانية التي نهلت من فنون الحضارة الإغريقية وزادت عليها ، فأصبحت متحفا للتراث الأوروبى كله .. وحتى فى أوج تألق باريس فى القرنين المذكورين ، نجد أن الفائزين فى معرض الصالون السنوى الفرنسى من كبار الفنانين ، يحصلون على ميداليات وجوائز مالية تؤهلهم للسفر إلى روما لدراسة الفنون ، والاغتراف من منهل الإبداع العبقرى لفنون عصر النهضة الذهبى ، والاطلاع على الآثار وروائع التراث هناك فى أجوائها الطبيعية ! ولا غرو أن نرى رعيلا من الفنانين الإيطاليين العظام يتفاعلون أولا بأول مع الفنانين الفرنسيين فى حركة العودة إلى الميثولوجيات القديمة ، بل ربما كان الإيطاليون بحكم موقعهم كمركز لهذه الحضارات كانوا أسبق من غيرهم . فلم ينفصلوا أبدا عن تراثهم ، ووجدنا أن عشرات من فنانيهم يستلهمون التاريخ فى أعمالهم، وينزعون إلى الأساطير والبطولات المثيرة فى تشكيل إبداعهم .

وكانت الصفة الغالبة فى أعمال الكلاسيكية الجديدة هى

الحروب الوطنية التى تزخر بها كتب التاريخ الإغريقى والرومانى .. ولكن تناول الفنانين لهذه الحروب يختلف تماما عن الحروب الواقعية كما تحدث فى الطبيعة ..

فهذا « دافيد » يرسم لوحة (قسم الإخوة هوراس) The Oath Of The Horatii وهى من أثمن مقتنيات متحف اللوفر حاليا — يقدم فيها المحاربين فى أوضاع مثالية رشيقة يقسمون على البذل والتضحية . وموضوع هذه اللوحة يتعلق بواقعة تاريخية وطنية رومانية . وفى أثناء رسم هذه اللوحة ، وجد « دافيد » أنه لن يتمكن من التعبير عن الرصانة الكلاسيكية التى ينشدها إلا فى روما وربوع البيئة الإيطالية الحافلة بمثل هذه الآثار ، لذلك قصد روما لإتمام اللوحة عام ١٧٨٤ ، وأثارت ضجة من الحماس والإعجاب فى صالون الدولة الرسمى عام ١٧٨٥ . ولكى يتقرب لويس السادس عشر إلى الشعب ، ويبرهن على مشاركته له فى عواطفه ووطنيته وآماله ، اشترى اللوحة من « دافيد » .. وهذه أول مرة فى التاريخ الأوروبى.. نرى الملك وهو يتملق الفنان !!

وتمثل هذه اللوحة تداخل الفن مع السياسة ، حيث يصور موضوعها اللحظة التى وقف فيها الأبطال الثلاثة الإخوة هوراس أمام والدهم وهم فى زى الحرب ومعهم أسلحتهم يقسمون أن يقاتلوا حتى الموت

أما لوحة « دافيد » الثانية وهى (نساء سابين The Sabine Women) فكان يهدف بها (على الطريقة الإغريقية المثالية) إلى إنهاء الحروب والمنازعات التى كانت تعصف بالشعب الفرنسى . وتصور هذه اللوحة معركة أسطورية يقف فيها المحاربون وكأنهم تماثيل هيلينية باردة التعبير والملامح ولكنها تشد أنظار المشاهد ليتأمل ويتفكر ويتدبر .

وبالرغم من أن بعض النقاد ومؤرخى الفن قد اتهموا « دافيد » بإشاعة الجمود فى فن التصوير من خلال المذهب الكلاسيكى الجديد ، وبخاصة فى رسم المعارك التى تتطلب من الفنان أن يضع فيها حرارة الانفعال وعنف الحركة وقوة المحاربين إلا أننا لا ننكر أن جاك لويس دافيد Jacques Louis David هو أحد عمالقة الفن العالمى بروائعه الخالدة وأسلوبه المميز ، ويعود إليه الفضل فى القضاء على فن الروكوكو المترف الناعم الحالم كالأطياف الوردية .. ذلك الذى نأى بالفن عن آمال وتطلعات الشعوب ! كما أن الكلاسيكية الجديدة التى انتشرت آنذاك فى كل أنحاء أوروبا والعالم عن طريق تلامذة دافيد ، قد خلقت الازدواج الفكرى حيث عبرت عن الفن المرتبط بالحرب والسياسة والتاريخ ، فكانت اللوحات كالأناشيد الوطنية فى وقت المعارك أو كالشعارات الهادفة عندما تتأهب الهمم وتلتحم القلوب وتتحد السواعد والعزائم .





فى هذا اللقاء نكشف عن مفارقات غريبة فى تكوين الشخصية الفنية من خلال مراحلها وتطورها عامًا بعد عام . فعندما تتضح معالم هذه الشخصية المميزة فى نهاية الأمر ، فإنما هى محصلة العديد من التجارب والممارسات والتأثيرات ، كالنحلة عندما تجتذبها مئات الزهور من كل نوع ولون .. ترتشف رحيقها ، ثم تفرزه عسلًا صافيًا من صنعها ولا أثر فيه لزهرة بعينها دون أخرى ! وهكذا الفنان فى بدايته الأولى ، ينجـذب إلى إبداعـات الأقـدمين والمعاصرين ممن شغف بعبقرياتهم .. يقلد هذا ، وينقل عن ذاك ، ويدرس ويتمعن ويستخلص ما يروق له من أعمال الآخرين ، إلى أن تتضح السبل أمامه .. وتتبلور شخصيته المميزة .

فإذا استعرضنا مثلًا أعمال وحياة الفنان الفرنسى الأشهر « رينوار » ، وجدناه فى مراحل تطوره الأولى يرسم كما رسم فنانو (الروكوكو) من قبله ، ويتألق فى رسم صور مارى أنطوانيت على التحف الخزفية والأوانى والستائر والطنافس ، ثم نراه أخيرًا وقد نضج فكره واشتق لنفسه فلسفته الذاتية وأسلوبه الخاص وعالمه المميز . وكما فعل رينوار ، نرى عشرات غيره من أساطين الفن العالميين يمرون بنفس التجربة الفنية .

وفناننا اليوم هو فرانسيسكو جويا (١٧٤٦ ـــ ١٨٢٨) الذى عاش حتى بلغ الثالثة والثمانين من عمره ، وعاصر فترات الصراع والتحولات الفنية والسياسية فى إسبانيا ، نراه وقد مرّ على نفس التجارب والممارسات ، حتى أصبح الفنان العالمى الذى دخل تاريخ الفن كأحد الروّاد الكبار فى مسيرة الإبداع الإنسانى الرفيع ! كان جويا فى إسبانيا مثل « دافيد » فى فرنسا ، بل وكان معاصرًا له . وقد استطاع كلاهما أن يحتفظ بمكانته الرسمية بوصفه زعيم الرسامين فى بلده ـــ دافيد بفضل دهائه وجديته وحسن تدبيره ، وجويا بفضل جسارته ومغامراته وطيشه بل ووقاحته فى كثير من الأحيان ! ومن المصادفات أن كليهما كذلك قد مات بعيدًا عن وطنه ، فقد توفى دافيد عام ١٨٢٥ فى بروكسل منفيا بمقتضى مرسوم ملكى ، وتوفى جويا « منفيًا .. بإرادته » عام ١٨٢٨ فى مدينة بوردو الفرنسية بعيدًا عن وطنه إسبانيا .

مارس جويا فى صباه وشبابه المبكر كثيرًا من الأعمال اليدوية الفنية كزخرفة الستائر والتحف الخزفية والطنافس ، وكان يقلـد من سبقـوه فى رسم الأساطير القـديمة والميثولوجيات الإغريقية على طريقة فنان الشمال الأوروبى الشهير « روبنز » . وظل غارقًا فى هذه الأسالـيب الرومانسية الحالمة حتى ذاعت شهرته بين الطبقـات الأرستقراطية الموسرة ، فأغدقت عليه من مالها وسلطانها ما جعله يتسلق إلى البلاط الإسبانى وتتوثق عرى الصداقة بينه وبين شقيق الملك شارل الثالث ، وكان يجمع بينهما جموح العبث وطيش الشباب وجنون المغامرات المثيرة ! ويومًا بعد يوم تجلى نبوغه فى الفن ، فأصبح مرسمه مقصدًا ومطمحًا للوجهاء من علية القوم وفاتنات المجتمع ، علهم يحظون برضاء جويا بأن يجلسوا أمامه ليرسم صورهم !

وعندما توفى الملك شارل الثالث ، وتولى شقيقه حكم إسبانيا تحت اسم شارل الرابع ، بادر بتعيين صديقه ورفيق مغامراته جويا ، رسامًا للبلاط .. وعندئذ تبدأ أهم مرحلة فى حياة جويا ، حيث بلغ الذروة فى فنه ، كما بلغ فى الوقت ذاته الحد الأقصى فى سلاطته وتهوره !

وكانت إسبانيا فى ذلك الوقت (أواخر القرن الثامن عشر) تعيش عصر الفساد والانحلال ، وقد عاشر جويا شتى طبقاتها : شعبها الذى طحنه الفقر ، وشبابها المحروم ، وفتياتها الضائعات ، وها هو ذا الآن يخالط أفراد البلاط الإسبانى وحاشيته الأرستقراطية الباذخة ، وتترسب فى ذهنه ووجدانه من كل ما يراه .. صورة قاتمة مهينة تثير اليأس والسخرية ! وهنا تأتى مرحلة النضوج الفكرى واستيعاب هذه المؤثرات المتناقضة فى بصيرة الفنان ، فيرسم اللوحات الملكية الساخرة التى تعلق فى أروقة القصور والمتاحف ، وكأنها هجاء لاذع ولعنة على العبث والرذيلة المقنعة المحصنة خلف الأسوار العالية !

ومن الغريب والعجيب ، أنه بقدر ما كان يقسو فى هجاء سادته فى لوحاته ، بقدر ما كانوا يغدقون عليه ويبذلون له العطاء ، وبخاصة السيدات منهم ، كمن يرشو ويحاول جاهدًا أن يستميل من يعرف سره ونقائصه وخباياه حتى يسكته أو يأمن جانبه أو يروّضه إذا استطاع !

واستبد اليأس والغضب بالفنان ، وكان لا بد له من متنفس يصب فيه جام سخريته على الناس والمجتمع وحتى على نفسه كذلك ! فعكف جويا على مجموعة لوحات حفرها على النحاس « تُعرف باسم لوس كابريكوس Los Caprchos كانت من أروع وأصدق ما رسمه فنان عالمى فى التاريخ ، جسد فيها انحلال المجتمع الإسبانى ، مجتمع العبث والشهوات والضياع !

رسم فظائع الحرب والتحول العجيب

إلا أن تحولا غريبا قد طرأ على حياته وأفكاره وإبداعه عام ١٨٠٨ ، عندما اقتحم الفرنسيون أرضَ الوطن ، فقد اجتاح جيش نابليون بونابرت إسبانيا فى هجوم شرس .. ثم تبعه فى جملة أخرى لقمع ثورة الشعب عقب تنصيب شقيقه « جوزيف بونابرت » على عرش إسبانيا .. ودارت المجازر الرهيبة بين الغزاة وأهل البلاد .. واستيقظت روح المقاومة والانتماء وحب الوطن فى وجدان الفنان .. وكانت وسيلته هى لوحاته الرائعة المعبرة التى تقطر أسًى وواقعية درامية مفجعة ! فأخرج مجموعته الخالدة المسماة « كوارث الحرب » .. ثم ألحقها بمجموعة أخرى تعرف باسم « فظائع الحرب » ! والزائر لمتاحف إسبانيا ولا سيما متحف « البرادو » .. يقف مشدوها أمام هذه اللوحات .. حيث تتمثل فيها ويلات الهجمات الشرسة .. كما تتجسد عليها روح المقاومة الباسلة المستميتة ! وكانت هذه اللوحات بمثابة تحول هائل فى حياة جويا .

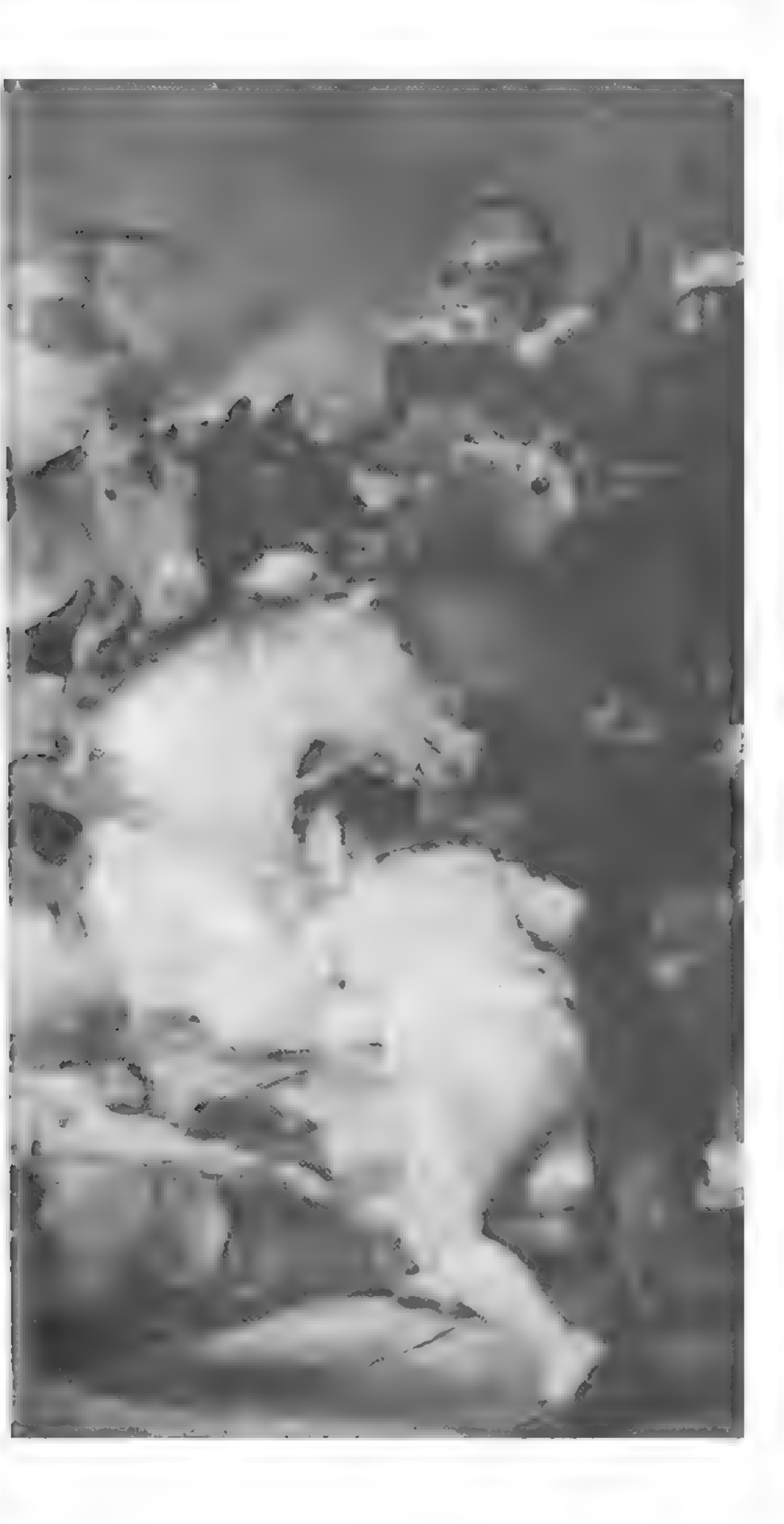
ولربما كانت أول مثال من نوعه فى تاريخ الفن الحق ، لا يعمد فيه الفنان إلى تمجيد المذابح أو إضفاء البطولة على الغزاة والفاتحين .. فهذه الجثث المتراكمة التى صورها جويا فى تراجيدية مأساوية فى صراعها مع الموت ، ليس فيها ما يشعر الإنسان بأدنى قسط من الجلال أو الجمال أو حب المغامرة .. ومن الوهلة الأولى ، يحس المشاهد بحيوية الكفاح وانطلاقة الحياة من عقالها فى فورة أخيرة وسط كتل الأجساد والدمار والأشباح القاتمة ! إنها غريزة البقاء تستعر هائجة فى أتون حلكة الموت !!

ولا جدال فى أن هذه الحيوية المتوقدة المتدفقة ، هى التى أكسبت لوحات جويا عن الحرب وقعها الدائم المتجدد فى حوار وجدانى دائم مع البصائر المتأملة لفنه الرفيع ، وهى فى الوقت ذاته تعتبر أوسع أعمال فناننا شهرة ، وأشدها حظوة بالتقدير والإعجاب !

وكان من الطبيعى أن تنطوى هذه اللوحات على أكبر جانب من العداء للفرنسيين .. ولكن ، بالرغم من ذلك ، فقد ظل « جويا » فى مكانه يحظى بمكانته كرسام للبلاط الإسبانى حتى بعد أن جاء نابليون بنفسه على رأس جيش كبير لقمع المقاومة الإسبانية ضد المحتلين الفرنسيين الغزاة !

وبعد سقوط نابليون .. دارت عجلة الأحداث .. وتولى « فرديناند السابع » حكم إسبانيا .. وتوقع الجميع أن يثأر الملك من « جويا » .. إذ كيف يقبل أن يظل رساما للبلاط الإسبانى تحت الحكم الفرنسى فى فترة الاحتلال ؟









واستدعى فرديناند فناننا جويا ، وكانت لحظة مواجهة حاسمة !.. واستعد جويا للقاء الموت المؤكد .. وكان من المستغرب أن يلقاه الملك بقوله : « إنك تستحق النفى ، بل تستحق الشنق ، ولكنك جويا .. فنان إسبانيا .. من أجل ذلك ، سأنسى كل ما فات » !!

ولا شك أن فرديناند ورجاله قد استعادوا فى أذهانهم تلك اللوحات المدوية التى أبدعها الفنان عن فظائع وكوارث الحرب .. حيث أدان الغزاة ومجد المقاومة وأشعل روح التمرد والكفاح من أجل الحرية !

وفى عام ١٨٢٨ مات جويا فى فرنسا بمدينة « بوردو » وكان قد هاجر إليها فى أواخر حياته بعد أن بلغ الثالثة والثمانين من عمره .. ولقد أمضى حياته طويلة مثمرة حافلة بشتى صنوف الشغب والفكر والمغامرة والعطاء والتألق والعبقرية .





تعودنا أن نرتاد آفاق الفن العالمي الرفيع من خلال الفنانين الكبار الذين تحفل بسيرهم كتب التاريخ ، وتزخر بإبداعاتهم أروقة المتاحف الشهيرة ، وغالبيتهم العظمى هم الفنانون الأجانب من الأوربيين .. ونادرًا ما يدخل في مضمار (العالمية) فنان عربي مسلم يعيش بين ظهرانينا كفنان عربي عالمي معاصر !

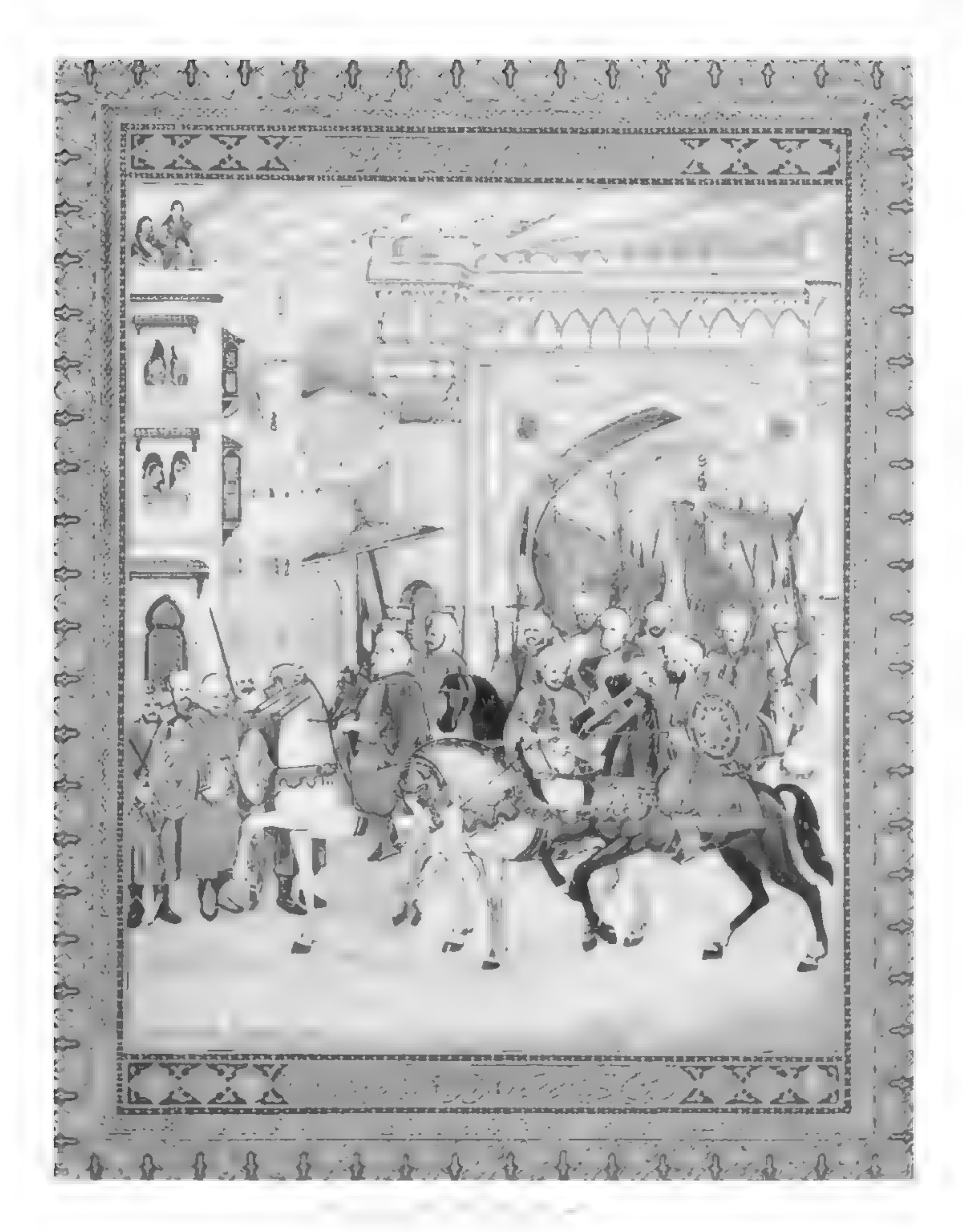
وكانت لي تجربة مثيرة ، عندما كتبت سلسلة من الأبحاث والمقالات الصحفية والمحاضرات الجامعية عن : الفنانين العالميين العرب . وكنت أقابل بالتساؤل دائما : وهل لدينا فنانون عالميون عرب ؟؟

فقد رسخت في مفاهيمنا منذ تفتحت بصائرنا على التذوق الفني والقراءة عن عوالم الإبداع ، أن (العالمية) تكاد أن تكون وقفا على الأجانب .. ولكن الحقيقة تؤكد غير ذلك ، فالفن الإسلامي كان — ومازال — له صولاته وجولاته ومدارسه الرائدة .. ناهيك عن عصور القمة والازدهار الإسلامي في عهد الأمويين والعباسيين والمماليك حتى مشارف عصرنا الحديث (عصر الانحدار) منذ مائتي سنة ! أما فنون الأندلس المعجزة ، فلا يسعنا المجال للحديث عن إبداعاتها التي كانت بمثابة المنارة الإسلامية على بحر الظلمات الأوروبي أيام أن كنا سادة العالم وعقله المفكر !

كل ما في الأمر ، أننا — بحكم بعض الالتزامات التي شرعها الدين الحنيف — عزفنا بفنوننا عن تصوير الجسمات ورسم الآدميين .. واتجهنا إلى إجادة الخط العربي والزخارف والوحدات الهندسية ، فوصلنا بها إلى الذروة ، وحتى في تناول الفنان المسلم للآدميين والكائنات الحية ، صورها بأسلوبه المميز الذي يقوم على التحوير والزخرف والخطوط المجردة والمسطحات الهندسية ، مغفلا التجسيد (البعد الثالث) الذي قامت عليه المدارس الأوربية كعنصر أساسي لنقل المنظورات الطبيعية .

وكان على الفنان المسلم أن يضع كل عبقريته ومهارته الفائقة ، في رسم هذه الوحدات الزخرفية التي استلهمها من النباتات والأشكال الهندسية غالبا ، على هيئة منمنمات يزين بها المخطوطات والمباني والأدوات المستخدمة في حياته اليومية .. ولذلك نقول إن الفن الإسلامي فن تطبيقي يواكب الحياة ويضفي عليها لمسات جميلة مبدعة ! ووصل الفن — بذلك — إلى قمة سامقة أسبغت على الطابع الإسلامي صفات مميزة ، تزيدها الروحانيات وشفافية الإيمان والبصيرة .. جمالا وجلالا .. وهي في الوقت ذاته من صفات الدين الإسلامي الحنيف ومثالياته الرفيعة !

والمنمنمات العربية الإسلامية ، بدقتها وزخارفها الرشيقة المتأنية اللامتناهية ، اشتهرت في التاريخ الإسلامي ، وكانت لها مدارس شهيرة ، كان أهمها مدرسة بغداد ذات الطابع الفارسي (في القرن الرابع عشر الميلادي) . وتمركزت في



بادئ الأمر فى مدينة « تبريز » ، وقامت مدارس « شيراز » و« هراة » وغيرهما ، وقد نتج عن امتزاج مدرستى « هراة » و« سمرقند » ، الفن الهندسى الإسلامى ..

وعندما نشاهد المصاحف الشريفة وما تحفل به من اللمسات الفنية المرهفة وإبداعات الخط العربى بمختلف أقلامه .. وكذلك المخطوطات التى توالى ظهورها فى شتى العهود الإسلامية ، نقف خاشعين نتأمل العبقرية الإسلامية التى أنارت العالم كله من أدناه إلى أقصاه فى يوم من الأيام .

محمد راسم .. يعيد أمجاد الماضى

وإن كانت هذه المدارس الفنية الرائعة ، قد اندثرت تحت سطوة الاستعمار ووطأة الأعاصير والمستوردات الغربية فى العصر الحديث ، إلا أن خميلة الإبداع العربى الإسلامى لم ولن تنضب أبدا ، وستظل تزهر دوما فنانين موهوبين من أمثال فناننا الجزائرى محمد راسم ، ليعيد أمجاد الماضى ، ويبدع المئات من المنمنمات الإسلامية التى أذهلت العالم الأوروبى . فسارعت الهيئات والمتاحف ودور النشر العالمية لاقتناء أعماله الفذة الفريدة فى عالم اليوم !

وكان يطيب لمحمد راسم أن يتناول فى لوحاته رسم المعارك الإسلامية الحربية بكل ما تنطوى عليه من حركة وكتل بشرية وكرٍّ وفرٍّ . إلا أنه استطاع باقتدار أن يعالج أعماله بطابعه الخاص وزخارفه الإسلامية متداخلة مع الخطوط العربية الرشيقة .

إن محمد راسم استوحى من الفن الفارسى واغترف من التراث العربى الإسلامى الغنى الذى تمتاز به الثقافة الجزائرية ، وعرف كيف يبدع هذه الروائع فى عهد كانت بلاده فيه ترزح تحت نير « الاستعمار الفرنسى القاتم السواد » فى قهر وتسلط ومحاولات مستميتة لمحو الشخصية العربية من أرض الجزائر !

وجاءت آثار فناننا لتكون تحديا وإعلانا صريحا لفن وطنى أصيل ، بل أكثر من ذلك ، فإنه بمنشوراته وأسفاره وشهرته ومعارضه عبر العالم ، قد ساهم فى التعريف بالفن الإسلامى الأصيل ، وبعروبة وطنه ، كما لفت أنظار عالمنا العربى والإسلامى بوجوب العمل على بعث الأمجاد الفنية الغابرة !

الفنان فى سطور

ولد محمد راسم بالجزائر فى ٢٤ يونية ١٨٩٦ .

○ وهو ينحدر من عائلة فنية .. فقد كان أبوه « على » فنانا برع فى فن النحت والتصوير على الخشب الذى يزين المبانى على الطريقة الإسلامية . كما كان عمه وأخوه الأكبر « عمر » قد تلقيا دراسة فنية فى نفس المعهد الجزائرى الذى تلقى فيه محمد ثقافته الفنية الإسلامية الأولى .

○ انتقل فناننا من معهد فنى إلى آخر حتى تفوق على والده ، ورحل إلى باريس ليعمل فنانا فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية هناك ، وأتيحت له فرصة زيارة إسبانيا لدراسة الفن الإسلامى الأندلسى فى قرطبة وغرناطة .

○ وتوالت أعماله فى المنمنمات ، وزاد الإقبال والطلب عليها من كافة الأوساط العلمية والفنية فى أوروبا ، وأصبحت رسومه الفنية تعرض فى باريس والقاهرة ، والجزائر .. وغيرها من عواصم العالم .

○ قام بعمل العديد من الكتب العالمية التى صدرت بمختلف لغات العالم .. من أهمها :

كتاب ألف ليلة وليلة ـــ خضراء ـــ حديقة الورد ـــ السلطانة ـــ أناشيد القافلة ..

○ وأصبح العالم كله يعترف للفنان بموهبته وتفوقه ، فمنح وسام المستشرقين عام ١٩٢٤ ، وحصل على الجائزة الفنية الكبرى للجزائر عام ١٩٣٣ ، وفى نفس هذا العام ، عين أستاذا فى مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر .

وحينما استقلت بلاده ، أصبح محمد راسم مستشارا فنيا للدولة ..

○ وكانت نهايته المؤلمة عام ١٩٧٥ ، إذ مات مقتولا فى السويد ، حيث داهمه ليلا أحد اللصوص وأرداه قتيلا طمعا فى سرقة أمواله .

○ ○ ○ وبعد : فإن صنع المنمنمة عمل شاق مرهق ، يتطلب ثباتا فى اليد والأعصاب ، ومهارة فى التذهيب ، لذلك يستعمل الرسام عدسات مكبرة تلازمه فى كل مراحل إبداعه .. لقد كان محمد راسم قبسًا إسلاميا أعاد إلى أذهان العالم ذكرى تألق العبقرية العربية الإسلامية ..

ولعلنا على أثره نقتفى .. وعلى دربه نسير !



من خلال استعراضنا فيما سبق من هذا الكتاب .. فصلنا أحداث مدرستين هامتين من مدارس الفن الحديث هما :

الكلاسيكية الجديدة والرومانتيكية ، ووقفنا على الظروف المثيرة التى أحاطت بظهورهما وتطورهما وأعلامهما البارزين من الذين خلدهم تاريخ الفن وازدانت المتاحف بإبداعهم الرفيع .. وعلقت بالأذهان أسماء كبيرة من أمثال : دافيد ــ جرو ــ أنجر ــ وجيريكو . وهذا الأخير وقد مات عام ١٨٢٤ فى ريعان شبابه وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن أرسى قواعد الرومانتيكية وفرضها فرضا على أساطين الأكاديمية الفرنسية من المتزمتين الذين تحكموا فى حركة الفن الفرنسى (وربما الأوروبى كله) سيرا على مبادئ المثالية والكلاسيكية الرصينة . والتزاما بتعاليم منشئ الأكاديمية الفنية ورجل الثورة الفرنسية : جاك لويس دافيد ، مؤسس الكلاسيكية الجديدة !

وكان جيريكو هو كبش الفداء الذى دفعه إيمانه بالتحرر من هذه القيود الثقيلة .. إلى أن يتحدى نفوذ الأكاديمية ورجالاتها بشجاعة وفدائية .. وعرض لوحته الشهيرة (طوف الميدوزا) فى صالون عام ١٨١٩ ، فأحدثت ما يشبه الانفجار الفكرى المدوى فى فرنسا والعالم الأوروبى .. بينما استنكرها رجال الأكاديمية لخلوها (على حد تعبيرهم) من تلك الصفات الكلاسيكية التى كانت تعتبر المثل الأعلى فى الفن .. وأثارت عاصفة النقد والتجريح هذه حنق جيريكو وسخطه . فأعلن أنه قد قرر تطليق الفن والبحث عن عمل آخر !! وترك فرنسا كلها وهاجر إلى إنجلترا حيث قضى نحبه عام ١٨٢٤ . ولكن قبل أن تسقط راية الرومانتيكية من يده المبدعة.. التقطها رسام شاب من أصدقائه هو « أوجين ديلاكروا » Eugène Delacroix وقد امتد به العمر ليصبح رمزا للرومانتيكية زهاء أربعين عاما كاملة ! نبذ خلالها المواضيع الميثولوجية المعهودة .. تلك التى كانت منهج الكلاسيكيين فى لوحاتهم المثالية الرصينة ، واختار بدلا عنها مواضيع البطولة من أحداث عصره أو من تاريخ العصر الوسيط .. ولذلك كانت ألوانه تجيش بالعاطفة والحيوية والحركة !

وكان ديلاكروا فى سن الحادية والعشرين عندما رأى لوحة « جيريكو » طوف الميدوزا فى صالون باريس عام ١٨١٩ ، وقد روى فى يومياته بعد ذلك أنه بعد مشاهدتها ، خرج هائما على وجهه فى شوارع باريس وقد أذهلته هذه اللوحة عن نفسه ! لقد كانت شيئا مثيرا يحرك الحواس ويشعل العاطفة والانفعال . وبعد ثلاث سنوات ، عرض « ديلاكروا » نفسه لوحة فى الصالون عنوانها : قارب دانتى Le Barque de Danté وكانت اللوحة إيذانا بأسلوب ونهج جديد يحمل بصماته هو ولا ينتسب إلى من سبقوه وليس نسجا على منوالهم .

وكما أوضحنا فإن الرومانتيكية مشتقة من لفظة (رومان) Roman الفرنسية ومعناها قصة أو حكاية ، وقد اعتمد المذهب الرومانتيكى منذ البداية على المبالغة فى تصوير المشاهد التراجيدية أو الدرامية ، فالألوان فيه أزهى دائما من الواقع ، والحركات أشد عنفا ، والأبطال أعظم بطولة ، والأشرار أشد فتكا وشراسة .. كما أن النساء أروع فتنة وجمالا ..

ولذلك .. وجدنا أن أول الرومانتيكيين « جيريكو » قد اختار موضوع لوحته (طوف الميدوزا) من فاجعة غرق السفينة ميدوزا .. كما أن فناننا ديلاكروا كان يبحث دائما عن موضوعات لوحاته من الأحداث الدرامية المثيرة .. ووجدناه يعرض فى صالون باريس عام ١٨٢٤ لوحته الشهيرة التى يعتبرها النقاد أروع آثاره جميعا وهى لوحة (مذبحة شيو) ، ويصور فيها مشهدا من المجازر التى ارتكبها الأتراك فى أبريل عام ١٨٢٢ فى هذه الجزيرة اليونانية الصغيرة !



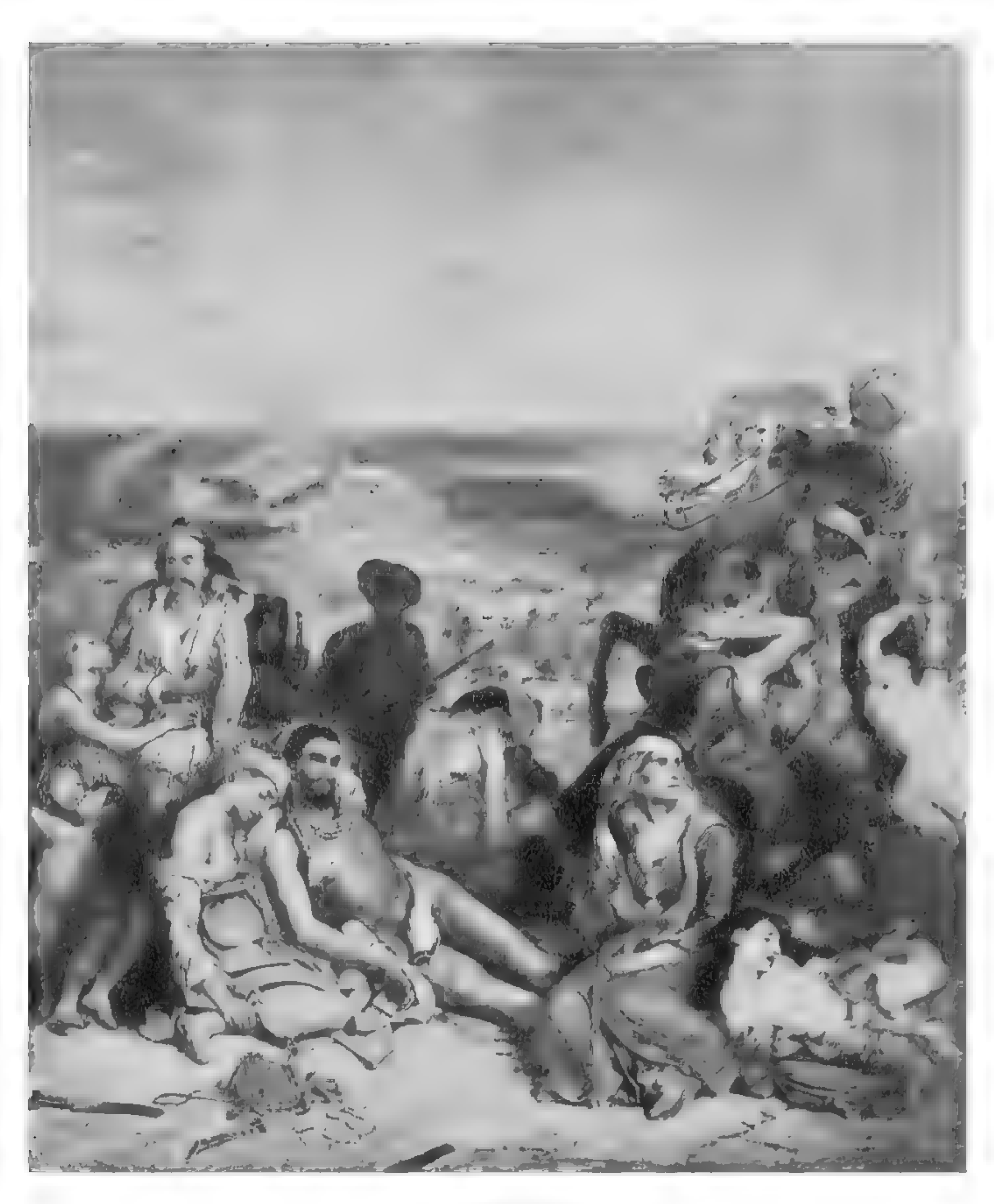
ولم يسكت الأكاديميون على هذا الخطر الجديد المتمثل فى عنفوان الحركة الرومانتيكية وعبقرية ديلاكروا .. فأخذوا يهاجمونه بأقذع الأوصاف ، حتى رأينا فنانا مثل جرو Gros (وهو الذى تخصص فى رسم معارك نابليون) بالرغم من اعتداله ، يصف لوحة ديلاكروا بأنها ليست كما أسماها (مذبحة شيو) ولكنها مذبحة للفن !

تعدد المواهب

ولم يستسلم الفنان كما استسلم من قبله جيريكو .. ولكنه ظل يرسم ويرسم مستمتعا بفتح آفاق التعبير والتفاعل الوجدانى والتحليق فى عوالم الألوان والانفعالات والحركة وتدفق الحياة ضاربا عرض الحائط بالأكاديمية ورجالاتها . ومن الغريب أن ديلاكروا لم يكتف بعالمه الفنى التشكيلى فحسب ، بل إن يومياته تصل إلى أغوار النفس ، وتبحث فى أدق المشاعر الإنسانية عندما يتناول فى كتاباته موضوعات : الإلهام والعبقرية ، والخيال والحلم ، متخذا من نفسه ميدانا للبحث والتنقيب ، وكان يصل إلى قمة تألقه الفكرى فى التحليل النفسى كأحد المتخصصين فى هذا الميدان مما جعل مؤلفاته مصدرا من مصادر علم النفس حتى إننا رأينا « سيجموند فرويد » فى مؤلفاته عن التحليل النفسى بعد ذلك يتخذ من أفكار ديلاكروا مرجعا من مراجعه الأساسية . ولم تقتصر كتاباته على اليوميات والخواطر ، ولكنها شملت كذلك مؤلفات أدبية رفيعة المستوى تقع فى مجلدين كبيرين . وتعتبر من روائع الأدب الفرنسى حتى اليوم ! بل إنه كتب القصص والمسرحيات التى نافس بها كبار الأدباء المتخصصين .

ولعل هذا التأثير الأدبى يرجع إلى ولعه بأعمال المشاهير من الأدباء والشعراء البريطانيين عندما سافر إلى لندن (وكانت قد ازدهرت فيها الحركة الرومانتيكية) عام ١٨٢٥ ، ودرس هناك ـــ بجانب الفن ـــ أعمال والتر سكوت وملتون وبايرون ، كما عكف على دراسة أعمال شكسبير الخالدة .







رحلة المغرب العربى

أما المرحلة الثانية التى كان لها وقع عظيم فى نفسه هى رحلته إلى المغرب العربى والجزائر عام ١٨٣٢ ، حيث بهرته أضواء الشرق وفتنته الطبيعة بمناظرها الخلابة ، كما شغف بالخيول العربية الأصلية ، فظلت هذه الإيحاءات عالقة بخياله طوال حياته ، وخلدها فى كثير من أعماله التى سجلها فى لوحات (نساء من الجزائر) والفرسان العرب ، والسباق والقنص .. وغير ذلك من مظاهر الحياة فى الشمال الإفريقى العربى وطابعه وتراثه الإسلامى الأصيل .

واستمر أوجين ديلاكروا فى تألقه حتى صار ألمع فنانى عصره حيث كلفته حكومته بتزيين قصور : بوربون ولوكسمبورج واللوفر ، مما جعله محط الأنظار فى أوروبا كلها ، وقد زخرت كتابات أدبائها وشعرائها وفلاسفتها بالثناء على عبقريته الفذة فى مجالات الفن والفكر والأدب على السواء ..

ومات ديلاكروا عام ١٨٦٣ عن خمس وستين سنة ، بعد أن خلف للبشرية كنوزا خالدة من العطاء الإنسانى الرفيع .

نعود إلى الأكاديميين .. وقد أصبح مذهبهم الكلاسيكى تهدده أخطار الأفكار الجديدة .. كما أصبحت عروشهم فى مهب رياح التحرر وأنواء الرومانتيكية الجارفة ، نراهم وقد تكاتفوا فلم يسمحوا للموجات الرومانتيكية إلا أن تنحصر فى أضيق الحدود وأطلقوا عليها أقذع الأوصاف والسباب ، ولكن رحيل « ديلاكروا » إلى انجلترا ومن قبله « جيريكو » واختلاط الأفكار وتلاقى الآراء .. أوضح أن فى إنجلترا حركة رومانتيكية رائعة ازدهرت وانتشرت بالرغم من تشدد الأكاديميين هنا وهناك .. ولكن سيطرة الفن الفرنسى على أوروبا كان أمرا سائدا حينذاك ، ولذلك وجدنا أن الأكاديميين الفرنسيين لم تقلقهم لوحات الفنانين الإنجليز لاعتقادهم أنه ليس فى الفن الإنجليزى ما يمكن أن يخشى خطره أو انتشاره ، بقدر ما أقلقهم ديلاكروا ولوحاته التى توالت تباعا لتبشر بنهاية « الكلاسيكية الجديدة » التى تشبثوا بها وكأنها قمة الإبداع الرفيع ونهاية المطاف !

وعملوا قدر طاقتهم لأن تظل الرومانتيكية مجرد مجهودات فردية لا تمثل تيارا فنيا يقلب الأوضاع .. وكان لا بد من أن تهب الرياح عاصفة جامحة هذه المرة . لقد ضاق الفنانون ذرعا بدكتاتورية الكلاسيكية وتحكم رجال الأكاديمية الفرنسية فبدأت هجرة جماعية للفنانين الشبان إلى قرية صغيرة وادعة من قرى الريف الفرنسى عند أطراف غابة « فونتينبلو » تدعى « باربيزون » Barbizon .. وهناك رفعوا راية العصيان فى وجه الأكاديمية الفرنسية ورجالها .. ودبروا أمرا غير مسيرة الحياة الفنية فى فرنسا .. وفى العالم أجمع بعد ذلك .



لم يعرف تاريخ الفن ثورة إبداعية قادها أساطين العباقرة من الفنانين المرموقين ، مثلما عرفها فى عهد نابليون .. هذا المغامر الطموح ، الذى دفعه جنون العظمة وأحلام السيطرة إلى إغراق العالم فى بحر من الدماء والدمار .. كما أن شخصيته بما تنطوى عليه من الغرابة والشذوذ والمفارقات قد حيرت المؤرخين والمحللين النفسيين .. فأجهدوا أنفسهم فى البحث والتحليل ، ولم يصلوا إلا إلى نابليون نفسه .. كظاهرة تاريخية مثل الظواهر الطبيعية ، يمكن وصفها ولا يمكن على وجه اليقين تبريرها .

نراه وقد اتخذ موقفا معينا ضد الحب فى أعقاب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .. قائلا : « إن الحب لعبة الكسالى والحراف المحاربين » واضعا نصب عينيه ما آلت إليه أمور الدولة بعد أن تحكم فيها نفوذ « مدام دى بمبادور » ومن بعدها « مارى أنطوانيت » فى عهدى لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .. ثم ما لبث أن انجرف هو نفسه فى دوامة الحب والمغامرات العابثة بعد ذلك .. ونجده يتراجع سريعا عن آرائه السابقة المعادية للحب والمرأة ، ويقول فى إحدى سهراته الساهرة السامرة : « من بين جميع الأماكن فى الدنيا بأسرها ، هذا هو المكان الوحيد الذى تحتل فيه المرأة مكان الصدارة .. هنا أجمل النساء فى العالم ، ولا غرو أن يصبحن شغلنا الشاغل » !.

ورأيناه يلهث وراء الفاتنات وممثلات مسرح (الكوميدى فرانسيز) ، وكان مساعدوه من الجنرالات العسكريين يتناقلون أخبار غرامياته همسا بالغمز واللمز .. وكان نابليون لا يتورع من أن يجاهر بهذه العلاقات التى لا تتفق مع إمبراطور فرنسا وقائدها الذى دانت له أركان المعمورة آنذاك ! بل كان يجمع حوله حاشية من الفنانين العظام ويسخرهم فى رسم هؤلاء الفاتنات فى أروع صورة ، تماما كما كان يكلفهم برسم معاركه الأسطورية وملاحمه الدامية الرهيبة .. وكما نجد أن صفحات التاريخ تزخر بصور عن هذه المعارك التى غيرت وجه العالم فى عصره .. نجد كذلك صورا لزوجاته وصديقاته اللاتى ارتبطت حياته بهن كجزء لا يتجزأ من سيرته وسلوكياته فى الحرب والسلام !.

قائد مخادع

وكان نابليون لا يقيم وزنا للمثل والمبادئ ولا للمعاهدات التى يبرمها ولا لكلمة الشرف العسكرية .. بل أخضع كل ذلك لإشباع شهواته فى السيطرة وتحقيق أحلامه وأطماعه .. فقد ذكر (كرستوفر هيرولد » مؤلف الكتاب الشهير (نابليون فى مصر) أن نابليون وهو فى طريقه إلى عكا لإخضاع الجزار ، وقع شروط الاستسلام مع الحامية التى كانت بالعريش ، وكان أهم بنودها السماح لرجال الحامية بالاحتفاظ بأسلحتهم وأمتعتهم دون خيولهم ، وألا ينضموا إلى قوات الجزار فى عكا .. وأقسم ضباط الحامية المسلمون على ذلك بالقرآن الكريم .. ولكن نابليون لم يلبث أن تراجع عن عهده فقتل بعضهم وأجبر باقى أفراد الحامية على الانضمام إلى صفوف قواته .. وبذلك ضرب أسوأ مثل للغدر ! ثم جاء دور يافا ، فمنح شروط الأمان للحامية التى بلغ عددها أكثر من أربعة آلاف رجل .. وصدق الرجال كلمة نابليون .. ولكن ما إن استسلمت له الحامية حتى أصدر أوامره بقتل الرجال والنساء والأطفال وحتى من كانوا فى أحضان أمهاتهم ! ومن الغريب أن نابليون قد كتب فى تبرير فعلته قوله : « إن سبب هذه المذبحة هو عدم الاستغناء عن عدد من الجنود لحراسة الأسرى .. وكان من المتعذر اصطحابهم معه لعدم توفير المؤن .. ولو أطلق سراحهم لانضموا إلى الجزار (والى عكا) ، ولذلك أمر بإبادتهم جميعا !! .



وعندما وصل الفرنسيون إلى أسوار عكا ، وحاصروها حصارا مريرا قاوم الجزار ومن معه .. وارتدت هجمات القائد المخادع وتحطمت جميعها .. فتبددت آماله وأوهامه ، وبلغت خسائر الفرنسيين أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل .. وساءت أحوال الغزاة ولا سيما بعد انتشار مرض الطاعون فى المدينة .. وتحول نابليون إلى الاستعراض والسلوك المحير .. فبينما نجده وقد أمر بقتل الأبرياء الذين صدقوا وعده فى العريش ويافا .. نراه يتوجه إلى مستشفى يافا لزيارة الذين أصابهم الطاعون !.. وعلى عادته المألوفة ، راح يشوه الحقائق ، فكتب إلى حكومة باريس يقول :

« كنت قادرا على الاستيلاء على عكا ، ولكننى عدلت عن ذلك لأن الطاعون كان يجتاح المدينة ويقتل أكثر من ستين شخصا فى اليوم الواحد ! » .

ومن الغريب أنه ما إن انتهى الرسامون المرافقون له من رسم زيارته المنافقة لمستشفى يافا كوثيقة تاريخية مخادعة .. حتى أمر بعدها مباشرة بقتل جميع المرضى بالسم .. لكن لحسن الحظ كان السم ضعيف المفعول فلم يكن قاتلا .. وتم شفاء معظمهم .. وعاشوا ليرووا القصة الرهيبة عن القائد الهمام .

وكان صمود عكا أول الغيث بالنسبة لانحدار نابليون .. لقد تحطم أسطوله فى « أبو قير » بالإسكندرية ، وأعلنت تركيا عليه الحرب ، وصحا المصريون من هول المفاجأة وأذاقوا قوات الاحتلال مرارة الموت .. فلم يجد أمامه إلا الهرب إلى فرنسا بعد أن تبددت أحلامه فى إقامة إمبراطورية شرقية تعيد أمجاد روما القديمة .

نابليون .. وحياة المجون

ومن الغريب أن فنانى غزواته الحربية والغرامية على السواء .. كانوا يجدون المتعة كل المتعة فى رسم معاركه (بما تزخر به من كر وفر وحركة وانفعال) .. وفى رسم فاتناته اللائى يختارهن من ذوات الجمال الآسر فى المجتمع الأرستقراطى ، من أمثال مدام فوريه ، مدام ريكامييه ، الممثلة جورجيه ، جوزفين (التى أصبحت إمبراطورة فرنسا) ، ديزيريه ، بولين ، وغيرهن .

أما حكاية نابليون مع جوزفين .. فقد كتب عنها الكثير بكل لغات العالم .. سواء أكانت هذه المؤلفات تتناول الحرب أم سيرة القائد فى حياته الخاصة .. فهى الغرابة ذاتها !





* فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ أصدر نابليون منشورا باللغة العربية بعد أن استقر بجنوده فى القاهرة يقول فيه :

« هل هناك شخص من العمى بحيث لا يرى أن العناية الإلـٰهية توجه عملياتى الحربية وترسم خطواتى فى أى معركة أخوضها » ؟!.

هذا الرجل المغامر الذى زعم أنه يعمل بوحى من السماء ، أصدر قبل ذلك بثلاثة أيام أمرا إلى أحد ضباطه وهو الملازم فوريه بأن يرحل من مصر إلى باريس عن طريق مالطة ، فى رحلة صعبة طويلة .. كان الهدف منها هو إبعاده عن زوجته مدام فوريه .. فقد كانت هى الغاية والهدف .

أما جوزفين ، فقد كانت أرملة شابة رائعة الجمال ، التقى بها فى باريس بإحدى الحفلات الخاصة فى أكتوبر ١٧٩٥ .. وكان الإمبراطور يعرف تاريخها وماضيها غير المشرف .. ولكنه بالرغم من ذلك صمم على الزواج منها .. وعند توقيع عقد الزواج ، أضاف سنتين إلى عمره ، وحذف ثلاث سنوات من عمرها .. وعندما قاد الحملة إلى إيطاليا توقع منها أن تأتى معه .. ولكنها بقيت فى باريس لتعيش وسط أجوائها المستهترة .. وعندما هدد بالتخلى عن منصبه ليظل بجوارها .. سارعت إلى إيطاليا لاسترضائه لغرض فى نفسها .. وبالرغم من أن أسرته قد أطلعته على سلوكها المشين ، إلا أن القائد الولهان تغاضى عن كل شىء .. بل وتوجها إمبراطورة على فرنسا ، ووضع التاج بيديه على رأسها فى حفل مهيب أقيم عام ١٨٠٤ م وسجله فى لوحة بانورامية ضخمة رائعة ، فنان فرنسا الأشهر آنذاك : لويس دافيد .. وتعتبر هذه اللوحة معجزة فنية بكل المعايير الإبداعية من حيث ضخامتها (إذ يصل عرضها نحو عشرة أمتار) ومن حيث معالجة الشخصيات التى احتوتهم والتحكم فى مقاييس الضوء والظلال والهندسة المعمارية وتناول البسط والملابس وغير ذلك من عناصر الإجادة الفائقة .

وبأمر من الإمبراطور .. تسابق الفنانون العظام لرسم فاتنة العصر الإمبراطورة جوزفين . والمشاهد لمتحف اللوفر فى باريس أو لقصر فرساى .. يجد أن ثورة فنية حقيقية قد أثرت عصر نابليون بكم هائل من الروائع الرفيعة تسجل فاتنات باريس كما تسجل المعارك والأحداث الجسام التى فجرها نابليون فى آفاق كثيرة من العالم حوله .

وكما ذكرت فى مطلع مقالى هذا .. فقد كان نابليون شخصية أشبه بالخرافة سواء فى صباه ومطلع حياته .. أو نابليون القائد والقنصل والإمبراطور الذى حلم بأن يحتوى العالم كله بين يديه .. كان عقلىّ النزعة ، مادى الفلسفة .. اعتقد أن الموقف الفاصل فى حياة الإنسان هو معرفته وموهبته وملكاته وثقته بنفسه .. كما كان من رأيه أن الحظ فى حياة الإنسان ما هو إلا تحديد محسوب وعقل راجح يزن ويبرهن ويضع كافة الاحتمالات بثقة واقتدار ، وكان يقول عن نفسه :

مقدرتى قائمة على ثقتى بنفسى وعلى معرفتى أن الخط المستقيم أقرب من الخط المنحنى !.

ولكنه بعد أن دارت عليه الدائرة فى أخريات أيامه .. بدأ يعتقد فى أن هناك قوة خفية قدرية تلعب دورا كبيرا فى حياة الإنسان .. واستسلم لهذه القوة الخفية التى لم يكن ليؤمن بها فى يوم من الأيام .. وارتسمت أمامه كلمة (مستحيل) التى كان قد حذفها من قاموس حياته أيام صولاته وجولاته الكاسحة !.

وبالرغم من المكابرة التى أعمته عن حقيقة العناية الإلـٰهية زمنا طويلا أيام سطوته وطغيانه .. فقد نما فى نفسه شعور صوفى بهذه العناية التى استشف أثرها فى النتائج التى آلت إليه بعد مغامراته الحربية الطائشة .. فكان يقول عام ١٨١٣ بعد نكسته المريرة وعزلته فى منفاه على جزيرة صخرية جرداء هى سانت هيلانة : « إننا مادة فانية .. ويجب أن نؤمن بالقدر وبالعناية الإلـٰهية .. إن انتقام القدر رهيب .. لقد عمدوا إلى قتلى (يقصد الإنجليز) بوخز الإبر بعد أن عجزت عن هزيمتى جيوش أوروبا كلها » !.

وتمر السنون ، وتدور العجلة .. لتطوى تحتها العتاة والمتسلطين .. ومن عجب ألا يبقى لنا غير كلمات مدونة فى صفحات التاريخ تحكى لنا العبر لمن يعتبر ، أما الأبقى والأروع والأبلغ .. فهو ما جادت به قرائح المبدعين من الفنانين العظام .. تزدان به المتاحف ومجمعات التراث الإنسانى .. محفوظا فى أطر من ذهب .. وفى ذاكرة الفكر وبصائر المفكرين .



فى الثلث الأخير من القرن الماضى شهدت الدول الأوربية عصرا مزدهرا ورخاء ماديا مبهرا جعلها ترفل فى حلل السعادة والاستمتاع بغير حدود .. وكانت فرنسا تمثل قمة هذا الانتعاش العالمى ، وتتمركز فى عاصمتها « باريس » رءوس الأموال وحركة التصنيع وأسباب الرفاهية ، وأطلق على هذه الفترة : (العصر الجميل) . وقد استمرت حتى عام ١٩١٤ حيث اندلعت الحرب العالمية الأولى كشبح رهيب جثم على صدر الحضارة الأوروبية وأسبغ عليها قتامة ودمارا مروعا ..

وقد شهدت فرنسا فى (العصر الجميل) نهضة فنية رائعة كانت تقارن من فرط جمالها بعصر النهضة الذهبى الذى ساد إيطاليا فى القرن السادس عشر والذى يطلق عليه فى تاريخ الفن : عصر النهضة الإيطالى .. مسرح إبداعات ليوناردو دافنشى ، ومايكل أنجلو ، ورافاييل ، وغيرهم من أساطين الإبداع الرفيع ! وفى (العصر الجميل) .. ظهرت فى فرنسا مصايف الشواطئ لأول مرة .. كما تألقت الملاهى









الأسطورية مثل « المولان روج » و« الكوميدى فرانسيز » وغيرهما .. وتوالت المعارض العالمية للصناعات الحديثة والآلات الثقيلة التى غزت العالم آنذاك منطلقة من أوروبا .. بل وكانت احتكارا لها دون غيرها فى أرجاء المعمورة .. فكانت الدنيا بأسرها تمثل سوقا استهلاكية لما تنتجه المصانع الأوروبية .. وبالتالى ، سيطرت على أموال العالم ومقدراته ، فظهر هذا الرخاء .. الذى أضفى على الأوربيين عامة — والفرنسيين بخاصة — مثل هذه الرفاهية والثراء الفاحش .. وكان لا بد من ظهور طبقة جديدة من أصحاب الملايين الكبار وممن يسيرون فى أفلاكهم .. لكى ينعموا بهذه الأموال ويرفهوا عن أنفسهم ما وسع لهم الترفيه .. وسايرت الحركات الفنية موكب البذاخة ، وقد اتخذت من باريس قاعدة إبداعية لتجمعات الفنانين والمبدعين بشتى نزعاتهم واتجاهاتهم .. وتخصص فنانون من المشاهير العالميين فى رسم حياة الليل من أمثال « ديجا » و« تولسوز لوتريك » ، وتخصص غيرهم فى رسم الصور الشخصية والمناظر الطبيعية والحياة الأرستقراطية الحالمة .. ونشطت الصالونات وحركة المعارض الفنية وقاعات المساجلات والمحاضرات الفكرية الأدبية ، كما أصبحت ظاهرة اقتناء الأعمال الفنية وتشجيع الفنانين من أهم خصائص الحياة الاجتماعية بين العائلات الموسرة . وامتلأت الصحف بصور اللوحات والمعارض وأخبار الفنانين .. بجانب فاتنات المسارح وملابس الشواطئ وبيوت الأزياء ومزادات التحف والجوهرات .. إلى غير ذلك من وسائل الترف والاستمتاع .

وظن الحكماء والمفكرون أن الشعب الأوروبى وهو يحيا هذه الحياة الناعمة .. لن يقوى على تحمل العثرات والنكبات التى قد تباغتهم على غير انتظار .. وازدادت هذه المخاوف مع حلول العقد الثانى من القرن العشرين وهم يراقبون تجمع السحب الداكنة المتراكمة فى أفق السياسة العالمية ، حيث ظهرت قوى الحرب كعملاق يستعرض عضلاته بشكل استفزازى ، يهدد ويتوعد ويطلق شعارات السيطرة . وقامت الحرب .. كاسحة شاملة تحطم كل شىء .. وانقضت على الحضارة التى بناها الأوروبيون من مئات السنين .. وأحالتها إلى أنقاض .. وأصيب الفنانون بالعقد النفسية المريرة .. وأفرزوا إبداعاتهم الكامنة فى نفوسهم المحطمة على هيئة نزعات هستيرية تواكب ما حاق بهم من دمار .. وظهرت « الدادية » .. كمذهب فنى يحطم كل جماليات الحياة .. بل إن قادة هذا الاتجاه المأساوى أطلقوا صرخات محمومة تنادى بنبذ الثقافة الرفيعة وإغراق المتاحف



والمراسم وإحراق الكتب ومجمعات الفنون الجميلة .. وأصبحت الدادية هى الصورة النفسية الكئيبة للحرب العالمية الأولى بكل معاناتها وآلامها .

● ● ● ولكنّ وجها آخر من وجوه الإبداع قد نفض عنه غبار اليأس وقتامة الدمار .. فرأينا مئات الفنانين يتسابقون إلى نداء الوطن .. يحاربون ويمارسون عملهم كأروع ما يكون العطاء المتحمس المشتعل الذى يساند جنودهم فى ميادين المعركة .. تلاشت مظاهر الترف الفنى فى النوادى والمسارح والملاهى والمعارض الرومانسية وأخبار الفاتنات وشخصيات المجتمع .. وحل محلها فى الصحف والمجلات انتفاضة حقيقية تتقد حماسا وتتوهج نارا كطلقات المدافع وحمم القنابل .. وامتلأت المطبوعات باللوحات الساخنة التى تطوع الفنانون برسمها من أرض المعارك .. جنبا إلى جنب مع مقاتليهم .. يحاربـــون بإبداعـــاتهم



المتأججة ، وينامون فى الخنادق ، ويصاب من يصاب تحت وابل القنابل ، ويقتل من يقتل وهو ممسك بأقلامه وأوراقه فى ميادين النزال .

وصار الناس يتهافتون على اقتناء هذه المطبوعات كسجل حافل للبطولة والمعارك والقادة والجنود والسلاح بأداء فنى مرهف وعاطفة جياشة تقطر حماسا وانفعالا ووطنية .. وكانت كبرى المجلات الأوروبية قاطبة .. هى المجلة الفرنسية الأسبوعية (لولستراسيون L'illustration) كانت مجمع أبحاث وموسوعة رائعة للفكر والحرب والسياسة والفن والإحصاء .. كما كانت العين الخبيرة بكل دقائق الحياة فى هذه السنوات العصيبة ! وكانت أعدادها تنفد لحظة صدورها .. بل إن ملاحقها التى توالى نشرها بين أيام الأسبوع تعتبر المرجع التسجيلى لكل ما يجرى وقتها على الساحة العالمية أولا بأول .. وكان الفنانون يقومون عبر هذا الجهد الرائع بدور الجندى المقاتل ووكالات الأنباء المصورة . ويصيغون ما يشاهدونه ويعيشونه على الطبيعة مختلطا بانفعالاتهم وعبقرياتهم المبدعة ، ويخرجونه على الملأ حيا نابضا ساعة بساعة .. أما الذين تخصصوا فى رسم (الصور الشخصية) فقد وضعوا كل ملكاتهم المتقدة فى رسم صور الأبطال وقادة الجيوش المحاربة وصور شهدائهم من الضباط والجنود الذين يلعبون أدوارا فعالة فى ساحة المعركة .. وتأخذ هذه اللوحات طريقها إلى المطابع ليراها الناس فى حينها دون إبطاء .. وقد جمعت الحكومة الفرنسية الآلاف من هذه اللوحات ، وأقامت لها المتاحف .



المتخصصة ، كأعمال فنية رفيعة !

• •

وقد اعتدنا أن نستعرض لوحات الفنانين العظام التى دخلت تاريخ الفن كنماذج رائدة يحتذى بها ، إلا أن العبرة هنا ليست بالقيمة الفنية وحدها ، بل برسالة الفنان نحو وطنه وأمته ، ومساهماته فى الأحداث المصيرية لبلده فى الأوقات العصيبة .. ولهذا ، كانت أهمية الجهد الإبداعى للفنانين الفرنسيين الذين كانوا قبيل الحرب العالمية الأولى يرفلون فى الحلل الرومانسية المترفة فى العصر الجميل .. ولكنهم ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا تحت السلاح : فنانين مقاتلين كالجنود سواء بسواء !

ومن الطبيعى أن تصبح مجلدات L'illustration فى الوقت الحاضر بمثابة مراجع وثائقية عالمية لسنوات الحرب بكل ما فيها ومن فيها ، بجانب ما تحويه من ذخائر فنية على أعلى مستوى من المضامين والأداء !

وإذا كنا اليوم — فى عصر الأقمار الصناعية وثورة التكنولوجيا الكاسحة المتطورة — تمتلك الوسائل لنقل مثل هذه الأحداث آليا فور وقوعها ، فعلينا أن نتريث قليلا لنتمعن فى تاريخ هذه الإبداعات التى تحدثنا عنها (أى منذ نحو سبعين عاما) ، ولنرى الجهد البشرى الخارق الذى بذله فنانو تلك الفترة ، لكى يواكبوا الأحداث لحظة بلحظة .. وليس فى طاقاتهم غير ملكاتهم ومواهبهم اليدوية المبدعة !



شهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر أحداثا سياسية خطيرة .. وقامت الثورة الفرنسية ، لتحتضن جماعة الفنانين الكلاسيكيين وعلى رأسهم الفنان الأسطورة « دافيد » .. وقد أطلق على أسلوبه الذى بعث أمجاد الماضى : « الكلاسيكية الجديدة » التى تتميز بالرصانة واستقامة الخطوط والاتزان ، من حيث الأداء الفنى . أمّا موضوعاته فقد استمدها من المواقف الوطنية فى تاريخ الرومان . وحتى عندما تناول رسم المعارك الحربية التاريخية بعُد عن الانفعال والإثارة ولجأ إلى التعبير البارد .. وكأن المحاربين تماثيل إغريقية تقبض على الدروع والحراب والسيوف برشاقة ومثالية أسطورية !

ودارت عجلة التاريخ .. وأصاب دافيد ما أصاب الثورة الفرنسية ونفى نابليون إلى سانت هيلانة . ونفى الرسام إلى بروكسل من عام ١٨١٦ إلى أن توفى عام ١٨٢٥ هناك ! ولكن مدرسته الفنية وتعاليمه الصارمة ، قد تعهدها أحد تلامذته .. هو الفنان جرو .

وكان جرو قد حظى وهو فى سن الخامسة والعشرين بمقابلة نابليون فألحقه بهيئة أركان حربه ، متخصصا فى رسم المعارك ومشاهد الحرب . فتمتع الفنان بالحماية من القمة .

ولم يكن تصوير المعارك بكل ما فيها من أهوال وإثارة وانفعال ، مما يستوجب الالتزام بالأسلوب الكلاسيكى الذى فرضه « دافيد » زعيم الفن على معاصريه .. ولما كان « جرو » يرسم هذه اللوحات لنابليون نفسه ، لم يتقيد بتعاليم أستاذه ، بل انطلق على سجيته وتفاعله بما يدور حوله من انفعالات درامية .

الرومانتيكية وتصوير المعارك

قبل أن نتطرق إلى البارون « جرو Gros » كما تنطق بالفرنسية ، أو جروز كما ننطقها بالإنجليزية .. أحب أن أصطحب القراء فى جولة استطلاعية لنتعرف على لوحات الفنانين آنذاك وكيف كانت تتحكم فيها تقاليد موروثة لم يحيدوا عنها غالبا ؛ فقد كان من المتبع أن ترسم المناظر داخل المراسم .. ولذلك عندما ظهر الفنان الإنجليزى كونستابل Constable مثلا .. وخرج إلى الطبيعة فى أوائل القرن التاسع عشر يستلهم الطبيعة مباشرة ، اعتبر ذلك التصرف تمردا سافرا على التقاليد الفنية .. وفى نفس الفترة .. ظهر فى فرنسا أكبر حركة لتكسير هذه القيود والانطلاق مباشرة إلى الطبيعة والواقع بكل ما ينطوى عليه من حركة وتعبير وحيوية ! وظهرت المدرسة الرومانتيكية .. وأرجو ألا نخلط بين « الرومانتيكية » و« الرومانسية » فهما نقيضان .

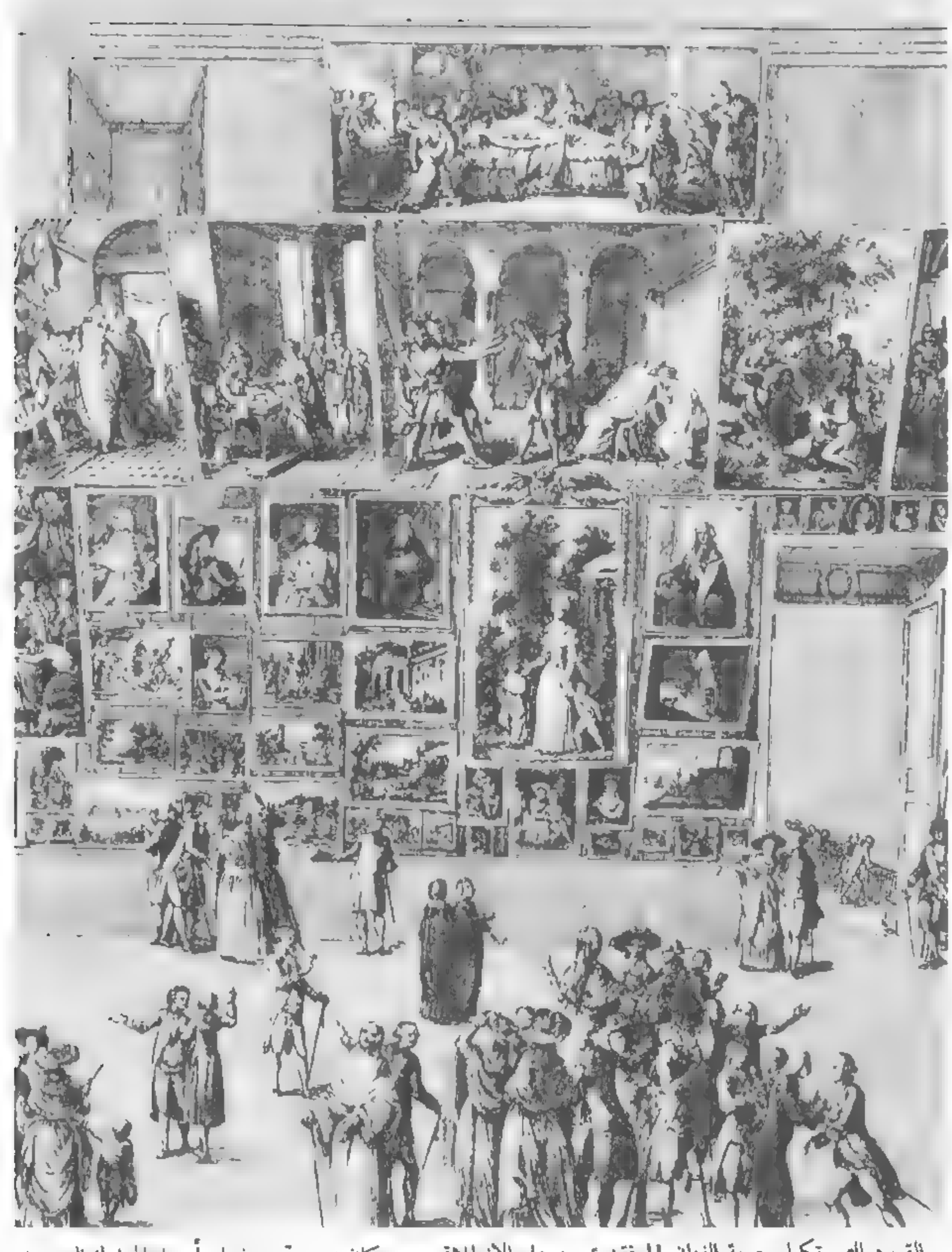
وإلى المدرسة الرومانتيكية يرجع الفضل فى تحطيم قيود الكلاسيكية الجديدة بجمودها وبرودها .

ونعود إلى فناننا « جرو » وقد بشر بالرومانتيكية فى لوحاته بالرغم من أنه تلميذ « دافيد » المخلص ! بل وقد رسم أروع لوحاته عن المعارك بكل ما تزخر به من رومانتيكية وإثارة ، بموافقة دافيد ومباركته ! والسر فى ذلك أن « جرو » كان يرسم هذه اللوحات لنابليون نفسه .

التحليق فى القاع

وبعد سقوط نابليون ونفيه .. وكذلك نفى « دافيد » إلى بروكسل ، تولى جرو — مؤقتا — إدارة مدرسة دافيد . وهنا حدث التمزق النفسى الرهيب داخل وجدان الفنان ! فالرسام تلميذ مخلص لأستاذه .. وربما وصل إلى ما وصل إليه تحت رعاية نفوذه الطاغى ؛ وقد عرفنا أن دافيد كان الحاكم بأمره فى كل ما يتعلق بشئون الفن فى فرنسا ؛ والآن .. يواجه بأنه أمين على مسيرة « الكلاسيكية الجديدة » التى فرضها « دافيد » .. ويتولى إدارة مدرسته ليسير على نفس النهج ! وهو فى الوقت ذاته لا يؤمن بهذه





القيود التى تكبل حرية الفنان !! فقد تعود على الانطلاق الذى لا تحده حدود . وكان نابليون يحيطه بعناية ويسبغ عليه حمايته ، وكيف لا وهو يرى أمجاده ومعاركه فى كل ما تبدعه أنامل الفنان الملهمة ! بل وخصص له مجموعة مختارة من القادة والمستشارين العسكريين لكى يمدّوه بكل ما يحتاجه من معلومات وتفاصيل حربية لإنجاز لوحاته ؟!

كان « جرو » ينفعل بأجواء المعارك التى يرسمها .. ويتفاعل معها ويشارك فيها بكل حواسه ، ثم يخرج لنابليون ، وللتاريخ ، وثائق حية هى بين الواقعية الدرامية والرومانتيكية المثيرة .. أليست هذه هى « الرومانتيكية » بعينها ؟ لقد كانت لوحات « جرو » الركائز الأساسية التى استقرت عليها رومانتيكية « تيودور جيريكو » و« ديلاكروا » من

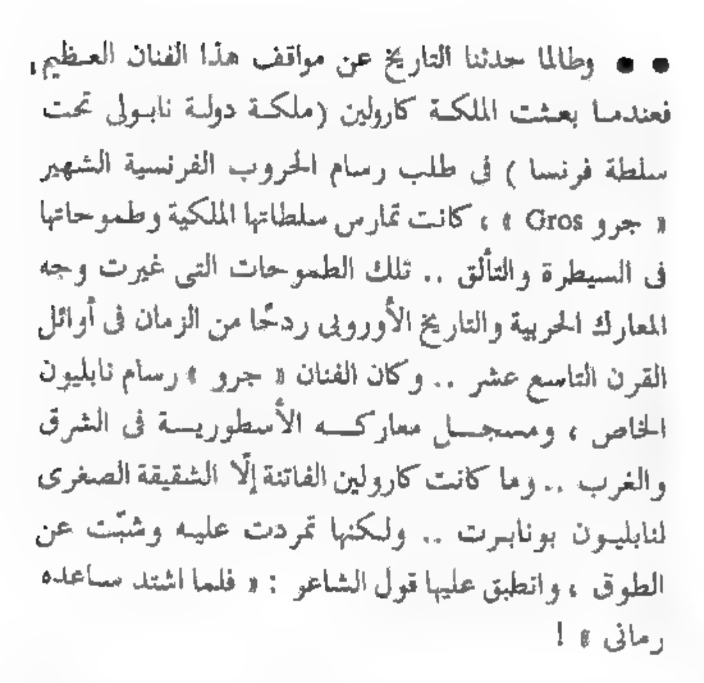




Gros

بعده .. وها هو ذا يعتلى منصة « ديفيد » ليقود مدرسته الكلاسيكية ويلقى بتعاليمه للفنانين بأن يتبعوا قواعد الأستاذ الأكبر « دافيد » بدقة ، وأن يتقيدوا تقيدا تاما بما سنّه من أصول فنية مثالية ! وهى : نبل الموضوع ، وصرامة الخطوط ، ورصانة الألوان ، والبعد عن التعاطف والانفعال والإثارة .

وعندما كان يحتج الشباب على هذه القيود ، كانت تفور فائرته على نحو يدل على أنه كان يقاسى هو نفسه من التمزق وكبت ميوله الشخصية ! فماذا كانت نتيجة تلك المعاناة القاسية ؟! ففى يوم من أيام شهر يونيو عام ١٨٣٥ ، قصد لوحاته التى رسمها عن معارك نابليون يستعرضها فى انكسار وأسى .. ثم توجه إلى نهر السين ونزع قبعته وقفازه ورباط عنقه .. وألقى بنفسه فى اليم .. وأغرق نفسه !! وعندما ابتلعته الأمواج وجرفه التيار ليضيع فى القاع بين ترسبات الماضى .. ضاعت معه أعظم العبقريات الفنية التى خلدت أكبر المعارك الحربية فى التاريخ الحديث !



الغــواية

• • وطالما حدثنا التاريخ عن مواقف هذا الفنان العظيم، فعندما بعثت الملكة كارولين (ملكة دولة نابولى تحت سلطة فرنسا) فى طلب رسام الحروب الفرنسية الشهير « جرو Gros » ، كانت تمارس سلطاتها الملكية وطموحاتها فى السيطرة والتألق .. تلك الطموحات التى غيرت وجه المعارك الحربية والتاريخ الأوروبى ردحًا من الزمان فى أوائل القرن التاسع عشر .. وكان الفنان « جرو » رسام نابليون الخاص ، ومسجل معاركه الأسطورية فى الشرق والغرب .. وما كانت كارولين الفاتنة إلّا الشقيقة الصغرى لنابليون بونابرت .. ولكنها تمردت عليه وشبّت عن الطوق ، وانطبق عليها قول الشاعر : « فلما اشتد ساعده رمانى » !



ذهب الفنان إلى نابولى ، وما كان بمستطيع أن يعصى أمرًا لشقيقة قائد الإمبراطورية التى كادت أن تطبق على أوروبا كلها .. وقابلته كارولين بترفع وكبرياء .. وهو الذى لم يكن معتادًا مثل هذا السلوك من أحد حتى من نابليون نفسه . إذ كان اعتداده بنفسه وبكرامته مضرب الأمثال

ويحكى التاريخ عن « جرو » أنه عندما رسم معركة « مانتوا » الشهيرة التى خاضها نابليون ضد الجيوش النمساوية فى الأراضى الإيطالية ، وقف القائد يناقش رسّامه وكيف بالغ فى قوة حشود الأعداء .. وطلب منه أن يجرى بعض التعديلات على هذه اللوحة التاريخية .. ولكن الفنان أصر على موقفه وكان أمينا على مسؤوليته أمام الفن والحقيقة والتاريخ .. ولم يجد نابليون بدا من أن يقول أمام مساعديه : « فليشهد التاريخ أننى أحترم رأى الآخرين بكل رضى وقناعة » !

وقف الفنان أمام الملكة الطموح واستمع إلى أوامرها وإغراءاتها وتعجب : كيف تريد أن تقنعه بأن يتعاون مع





جواشيم مورا Joachim Murat ملك نابولى

أعداء شقيقها الإمبراطور وينضم إلى الحلفاء الذين كانوا فى ذلك الوقت يهاجمون فرنسا ويطلبون إقصاء نابليون عن العرش وإعادة أسرة بوربون إلى فرنسا ! وأسقط فى يد الفنان .. وقال لها بكل أدب .. سيدتى : إن نابليون ولى نعمتنا جميعًا .. وهو شقيقك الذى يحبك .. وكنت أود أن تأمرينى بعمل صورة شخصية لك وللعائلة الملكية .. فهذا شرف لى .. أما أن أسهم بأى جهد ضد إمبراطورى ..

ولم يكمل حديثه حتى ثارت الملكة الفاتنة وأمرت بطرده من القصر .. ولم يكد يتوارى عن أنظارها حتى صرخت بغيظ واستهجان :

ــ إن الصورة الملكية للعائلة .. سيرسمها لى من هو أفضل منك .. إنه الفنان جيرار Gérard .

ويضم متحف فرساى Versailles بين مقتنياته صورة كارولين وأطفالها التى رسمها لها جيرار .. كما يضم العديد من اللوحات الحربية التى رسمها « جرو » وغيره من الفنانين عن معارك نابليون وقادتها وأحداثها .. وهى الوثائق التاريخية النابضة بالحياة حتى اليوم . فمن هى الفاتنة المتمردة الطموح التى لعبت دورا بارزا فى توجيه دفة الحرب والسلام آنذاك على الساحة الأوروبية ؟

كارولين ولعبة القيادة

كانت مثل شقيقها نابليون .. السعد حليف نجمها منذ البداية ، ولدت بجزيرة كورسيكا فى ٢٥ مارس عام ١٧٨٢ .. اسمها المركّب : مارى أنونسياد كارولين وعرفت باسمها الثالث فى التاريخ .. وعاشت ٥٧ عاما ، وهى تصغر نابليون بثلاث عشرة سنة . كانت جميلة ، مسرفة ، قوية الإرادة ، دائمة الرغبة فى فرض إرادتها على غيرها وبخاصة على المقربين منها ، ترعرعت فى وقت كان نابليون يشق طريقه نحو المجد والجاه والسلطان ، فتأصلت فى نفسها نزعات المطامع والطموحات العريضة . وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها ، شغفت بمظاهر الأبهة

المثيرة والحلل البراقة التى يرفل فيها قادة الجيش الذين كانوا يصنعون تاريخ فرنسا فى تلك السنوات . وتركز اهتمامها وأثار إعجابها شخص الجنرال « مورا Murat » لما جُبل عليه ذلك القائد من قوة فى البنية وشجاعة فى الحرب وتفان فى خدمة شقيقها نابليون .. وفى الحقيقة فإن مورا كان جاهلاً فارغ الوفاض من كل علم وفن وذكاء .. أما فى المعارك فكان فارسا لا يشق له غبار وقد اعتمد عليه نابليون (القائد — والإمبراطور بعد ذلك) فى إحراز النصر فى معظم المعارك التى خاضها .. ولهذا اختارته كارولين زوجا لها دون سواه ! وصممت على أن تجعل منه علما من أعلام عصره !

وتزوجته عام ١٨٠٠ ، وبارك نابليون هذا الزواج منذ البداية لحبه الشديد لمورا وكارولين .

وكان الشبه بين الفتاة وشقيقها متطابقا فى سلوكيات كثيرة : الطموح والذكاء وبُعد النظر ، وانتقاء الرجال . وبلغت من ذكائها أن وصفها السياسى الفرنسى الداهية « تاليران » بقوله : « إنها رأس كرومويل على جسم امرأة فاتنة » !

وتحقق الحلم الكبير

وقد كانت كارولين تحلم بأن تصبح ملكة ويجلس معها على العرش زوجها مورا ، لا سيما أن نابليون كان يوزع العروش التى وقعت تحت سلطانه على إخوته .. فلماذا لا تحظى بتاج تضعه على رأسها ؟

وكانت تطمح أول الأمر فى عرش إسبانيا ، غير أن نابليون أعطى هذا العرش لأخيه جوزيف .. فرضيت كارولين بأقل منه .

ففى يوم ١٥ يوليو ١٨٠٨ أصدر نابليون أمره بأن يصبح مورا ملكا على دولة نابولى الإيطالية وأن ترقى أخته إلى مصاف الملكات .. وبذلك تحققت أمنيتها بما يتفق وطموحاتها التى سعت إلى تحقيقها .

كان مورا من أولئك الملوك الذين تُبهر أبصارهم وعقولهم مثل هذه المناصب وقد أتت إليهم على طبق من ذهب .. فانتابتهم حالة من فقدان الوزن ! فهو — وإن كان قائدا حربيا لا يبارى — إلا أنه لم يؤهل لهذه المسئولية التى تحتاج إلى ذكاء ودهاء وحكمة أكثر من احتياجها إلى عضلاته الحربية التى لا يملك غيرها ! فصارت كارولين هى كل شىء فى الدولة . وكانت لها أسلحتها الأنثوية ودهاؤها وأطماعها الخاصة غير عابئة بالروابط الأسرية وبفضل نابليون عليها .. حتى وصل بها الأمر إلى أن تستعدى الدول على شقيقها كى تثبت التاج على رأسها أكثر وأكثر !

ولم يكن مورا يهتم إلا بأناقته وملذاته واقتناء الخيول الأصيلة والتحف الثمينة .. وترك كل الخيوط بين أصابعها العابثة ! حتى قال عنه الوزير « فوشيه » : « إنه كثير الشجاعة ، قليل الأدب ، صغير العقل » !

ومن المعروف أن كارولين تحتل بين فاتنات التاريخ مكانا ممتازا ، وتعد فى طليعة النساء اللواتى عبثن بعقول الرجال لبلوغ أهدافها . وهنا نرى الدور الذى لعبته مستغلة أسلحتها هذه منذ عام ١٨١٢ ، أى منذ أن هاجم نابليون سهول روسيا ، ثم اضطر إلى التقهقر بعد أن أحرق الروس عاصمتهم « موسكو » بأيديهم ، يومها بدأ نجم الإمبراطور فى الأفول ، وأدركت كارولين أن الغد يكشر عن أنيابه للأسرة وللإمبراطورية كلها .. ففكرت فى اتخاذ الحيطة لمواجهة المفاجآت التى قد تأتى على غير ميعاد .

الخيانة

لم تتورع الملكة اللعوب عن الدخول فى مفاوضات للتحالف مع السياسى النمساوى الماكر « مترنيخ » الذى كان يدير التحالف الدولى ضد فرنسا وإمبراطورها نابليون .

فتقربت إليه بوسائلها المعهودة .. وأحيت العلاقة الخاصة بينهما منذ أن كان يشغل منصب سفير دولته « النمسا » فى باريس عام ١٨٠٦ . وها نحن أولاء فى عامى ١٨١٤ و ١٨١٥ .. (خلال انعقاد مؤتمر فينا) حيث تقرر مصير نابليون أو بمعنى آخر تقررت نهايته ! ولكن كارولين استطاعت بهذه الخيانة أن تبقى على حياة زوجها .. بل على

عرشه بجانبها . وقد وصل بها الأمر قبل ذلك بعام ، أن تدفع زوجها إلى خيانة ولى نعمته بالانضمام إلى قوات الحلفاء الذين كانوا يهاجمون وطنه الأصلى فرنسا .. لكن ضمير مورا لم يمت بعد ما اقترفه من جرائم فى حق قائده ووطنه .. فقد شعر بوطأة الخيانة .. وهو الرجل العسكرى الذى أحبه نابليون ووثق به أيام أمجاد الحروب الفرنسية الكبرى .. فنراه يندم على هذه السقطة .. ويضع نفسه تحت تصرف إمبراطوره شقيق زوجته بعد أن عاد من منفاه فى جزيرة « ألبا » واستعاد عرش فرنسا لبضعة أسابيع .. فكلفه نابليون بقيادة معركة فاصلة ضد الأعداء المتحالفين .. إلا أن مورا سقط فى أيديهم فأعدموه فى شهر أكتوبر عام ١٨١٥ .

وأصبحت كارولين أرملة فقدت كل شيء .. التاج والمال والجمال . وأرسل نابليون منفيا إلى جزيرة سانت هيلانة .. وعادت أسرة بوربون إلى عرش فرنسا .. وتشتت شمل أسرة بونابرت ، التى أشعلت أكبر معارك دامية فى التاريخ .

والمشاهد لمتحف فرساى .. يقرأ فى لوحات الفنانين قصة الأمجاد وسطوة الحكم وروعة النصر وبذل القادة العظام .. كما يتعظ بدروس التاريخ ومآل التسلط والمتحكمين فى مصائر الآخرين !

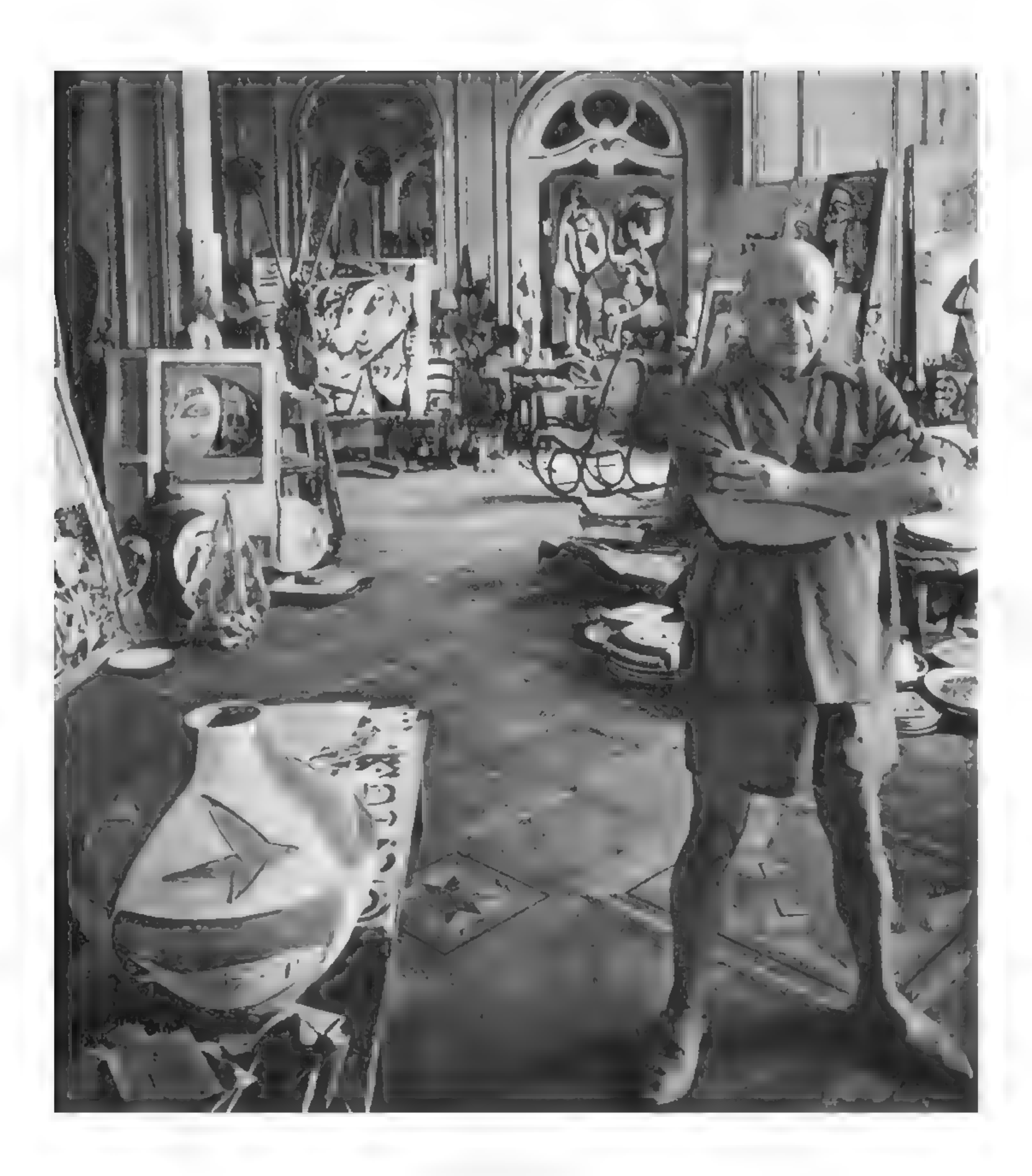


فى عام ١٩٥٠ عرضت فرنسا فيلما سينمائيا عن مأساة « جرنيكا » ، اعتبره النقاد تجربة رائدة فى عالم السينما ؛ حيث حصل على جائزة أحسن فيلم عن الفنون التشكيلية . فقد كتب مادته شاعر فرنسا الكبير « بول إيلوار » عام ١٩٤٧ ، وكانت عبارة عن قصيدة رمزية مطولة تفيض بالمشاعر الدرامية والشجن الدامى ، متأثرا بلوحة جرنيكا Guernica الشهيرة التى رسمها بيكاسو عام ١٩٣٦ بعد أسابيع قليلة من المأساة المروعة التى راح ضحيتها سكان القرية الإسبانية الوادعة « جرنيكا » ، عندما ألقى عليها الألمان وابلا من قنابلهم ، فدمرت القرية بمن فيها عن آخرهم .. واندثرت تحت الأنقاض جثث ألفين من القرويين العزّل هم كل سكان هذه القرية البائسة .

وقصة الجرنيكا ، حدث مروع من أحداث القرن العشرين الذى يزخر بالصراعات المأساوية والأطماع الاستعمارية والتسلط . وقد اتخذ من هذا الحدث الجلل مادة درامية للشعراء والأدباء والفنانين وكل صنوف الفكر الإنسانى المعاصر ، فقد واصل الكاتب العالمى — إسبانى الأصل — فرناندو أرابال ، طريق التفاعل والانفعال بأحداث وطنه ، وكتب مسرحيته الشهيرة « جرنيكا » ، كتعبير صارخ عن أزمة إنسان هذا العصر ، وصيحة مدوية تنادى بمناصرة الشعوب المستضعفة فى سعيها نحو التحرر وبناء مستقبل أفضل ، فى مأمن عن أطماع القوى الكبرى التى تمتص دماءها وتزيد من رخائها على أشلاء الشعوب الآمنة النامية . وعلى هذا المنوال نسج الفنانون والمفكرون عشرات من الأعمال الإبداعية التى تتناول هذه المأساة التى حلت بالقرية الوادعة .

ولكى نستعرض مأساة قرية جرنيكا على أيدى قوى الشر النازية ، نعود إلى عام ١٩٣١ فى إسبانيا ، فنرى أن الملك « ألفونسو » قد تنازل عن الحكم ولم يصمد أمام قوة الجمهوريين المناوئة لحكمة آنذاك ، ونتيجة لذلك ، أعلنت الجمهورية الإسبانية الثانية برئاسة « زامورا » الذى استمر فى الحكم خمس سنوات مليئة بالقلاقل والاضطرابات بين





التقليديين والراديكاليين . وكانت فرصة سانحة للقوى النازية الألمانية التى كانت تتأهب للسيطرة على مقدرات أوروبا والعالم بأسره .. فاحتضنت « فرانشسكو فرانكو » أو الجنرال فرانكو — وكان مرابطا بقواته فى المغرب — وشجعته على الزحف بقواته والاستيلاء على حكم البلاد .. ووضعت تحت يده العتاد الحربى والطائرات النازية لتنفيذ هذه المغامرة . وكان لا بد من كبش فداء لبث الرعب فى نفوس القوى المعارضة ، فوقع الاختيار على قرية جرنيكا ، وهى إحدى قرى إقليم « الباسك » فى شمال إسبانيا .

وفى صباح يوم ٢٦ أبريل من عام ١٩٣٦ — وكان يوم السوق الأسبوعى للقرية — فوجئ السكان البسطاء بالسماء من فوق رءوسهم وقد امتلأت بالطائرات الألمانية الغازية ، تلقى بقنابلها عليهم وتدك البلدة بما فيها ومن فيها حتى أحالتها إلى دمار ورماد وأشلاء.. وعلى مدى ثلاث ساعات ونصف الساعة ، قتل ألفان من المدنيين هم كل سكان القرية .. وبهذا العمل الوحشى ، سهلت مهمة الجنرال فرانكو بعد أن تحققت أهداف النازية فى إرهاب الشعب الإسبانى لكى يخضع لسلطة عميلها والاستيلاء تماما على كل أرجاء البلاد .

وكان هذا العمل المشين ، مقدمة للحرب الأهلية الإسبانية التى اندلعت فى ١٨ يوليو من ذلك العام ، كما كان — فى نفس الوقت — مقدمة وتمهيدا للحرب العالمية الثانية التى اشتعل أوارها بعد ذلك بنحو خمس سنوات .

* الانفعال والعطاء *

وكان طبيعيا أن ينفعل الفنان الإسبانى الكبير بيكاسو بهذا الحدث المروع ، فأعد لوحة ضخمة (عرضها نحو ثمانية أمتار وارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف المتر) وبدأ بعد أسابيع قليلة من مأساة جرنيكا ، وبعد أن أصبح فى قمة تفاعله وانفعاله ، برسم هذه اللوحة التى قُدِّر لها بعد ذلك أن تشغل العالم بأسره قرابة نصف قرن .

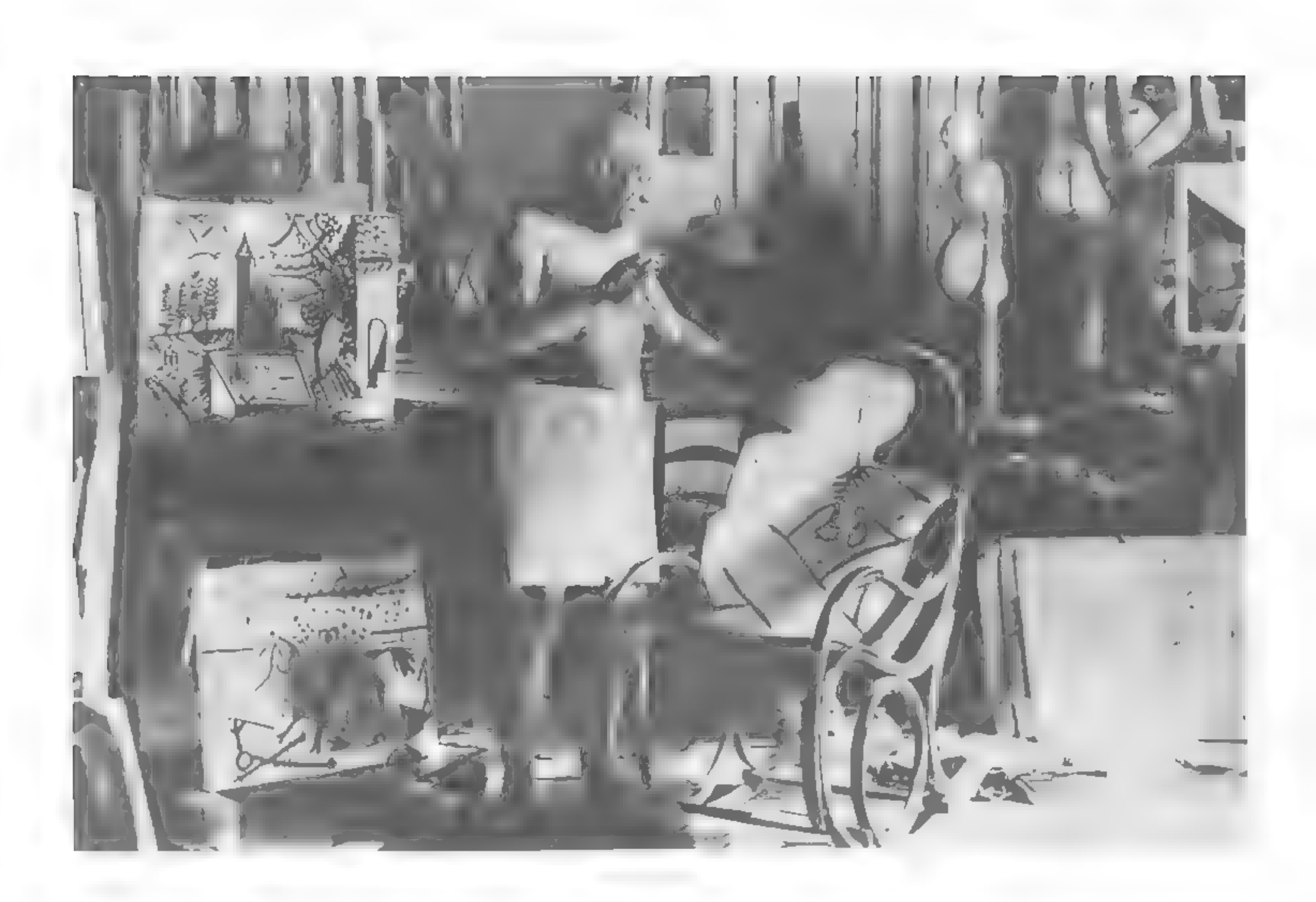
وبالرغم من أن بيكاسو حاول دائما أن يكون بعيدا عن السياسة ، وكان يقيم بصفة دائمة فى فرنسا ، إلا أن قدره هيأ له أن يلعب دورا هاما وفريدا فى الحرب الأهلية الإسبانية بهذه اللوحة العملاقة .

وقد ألزم بيكاسو نفسه فى لوحة « جرنيكا » باللونين الأبيض والأسود مع درجات متفاوتة من اللون الرمادى ، وحرم نفسه تماما من استخدام الألوان الأخرى كالأحمر والأصفر والأزرق ، وهى الأكثر قدرة على التعبير كما هو متبع فى مثل هذه اللوحات الرمزية الضخمة . إنه موقف يذكرنا بما فرضه على نفسه أبو العلاء المعرى فى اللزوميات ، حيث ألزم نفسه بما لا يلزم . ولكن فى مقابل استغنائه عن الألوان ، أصر بيكاسو على أن تكون أى لمسة فى اللوحة الكبيرة رمزا وعلامة مميزة على المأساة والرعب المجسد الذى يعانيه أناس جثم عليهم شبح الدمار والموت الرهيب ! .

وعندما افتتح المعرض الدولى فى باريس عام ١٩٣٧ ، عرضت الجرنيكا لأول مرة ، واحتلت مكان الصدارة فى الجناح الإسبانى ، وسرعان ما أصبحت بؤرة الاهتمام ومثار التعليقات فى الصحافة العالمية ، وتحول إزاءها المثقفون والنقاد والمتذوقون إلى مؤيد ومعارض .. وخرجت من هذا المعرض تعليقات وشعارات مدوية على لسان القادة والمفكرين من كبار الشخصيات المعاصرة . وكتب عنها الشاعر الشهير — حينذاك — مايكل ليريس قصيدة يقول فى مطلعها : إنها — أى الجرنيكا — جرس إنذار ، إن كل ما نحبه يوشك أن ينزوى ويندثر تحت أقدام الغزاة !

وفى العام التالى (١٩٣٨) عرضت اللوحة فى لندن ، فأثارت نفس ردود الأفعال والانفعال فى نفوس النقاد والمفكرين .

وفى عام ١٩٣٩ .. وكانت سحب الحرب العالمية الثانية تتراكم حالكة السواد فى سماء أوروبا والعالم .. ونذر الدمار تنذر بالخراب الشامل القريب ، خشى بيكاسو على اللوحة ، فقرر إرسالها بعيدا عن أوروبا ، لتحفظ فى نيويورك بمتحف الفن الحديث هناك . وظلت اللوحة فى أمريكا .. وكان طبيعيا أن تعود اللوحة بعد انتهاء الحرب .. ولكن بيكاسو أعلن أن « الجرنيكا » تخص الشعب الإسبانى ، وطلب من أمريكا أن تحتفظ باللوحة حتى تتخلص إسبانيا من حكم الفاشية وتعود مرة أخرى جمهورية



ديمقراطيـة ، ونص عنـد إعادتها أن تذهب إلى متحـف « برادو » بمدريد .

وظلت إسبانيا تحت حكم فرانكو ، يحكمها حكمـا دكتاتوريا مطلقا .. وطال حكمه .. ومات بيكاسو عام ١٩٧٣ قبـل أن تتحقـق الديمقراطيـة التى كان يتمناهـا لبلاده .. وبذلك كُتب على اللوحة أن تتشرد إلى أن يقضى الله برحيل فرانكو ..

وبعد وفاة بيكاسو بعامين (١٩٧٥) مات فرانكو .. وبدأ التفكير فى إعادة اللوحة إلى إسبانيا . وهنا ظهرت المشاكل التى احتلت ساحات القضاء الأمريكى والإسبانى معا .

* .. واحتدم النزاع *

طالب ورثة بيكاسو بأحقيتهم فى امتلاك اللوحة ، وأثار محامى العائلة « رولاند روماس » اعتراضهـم على تنفيـذ الوصية التـى تنص على أن تذهـب الجرنيكـا إلى متحـف برادو . وفى نفس الوقت طالب سكان مدينة « مالاجا » أو « ملقة » الإسبانية بأنهم أحق من غيرهم فى امتلاك اللوحة ، حيث إن مالاجا هى مسقط رأس الفنان بيكاسو ، وحرىّ بهم أن تتشرف المدينة باقتناء عمل من أهم أعماله الخالدة ! إلا أن مدينة برشلونة تصدت لهذا الإدعاء .. وطالبت فى ساحات العدالة بأن يكون هذا الميراث من حق سكانها .. لأن بيكاسو رحل إلى برشلونة وعمره اثنتى عشر سنة ، حيث درس فى مدرسة الفنون هناك ، واستقر فى المدينة إلى أن صار فنانا حتى رحل إلى باريس ، وأضافوا إلى ذلك أن « متحف بيكاسو » ببرشلونة يضم نحو ألف وستمائة لوحة من أهم أعماله .. ويجب أن تكون « الجرنيكا » على رأس هذه الأعمال التى أهداها بيكاسو بنفسه إلى مدينته المحببة التى كان يفضلها على سواها من المدن الإسبانية .

أما الجهة الرابعة .. فهى مدريد ، فقد تمسك أهـالى العاصمة بتنفيذ وصية الفنان .. وهى إيداع اللوحة فى متحف البرادو العريق ، غير أن مديرى المتحف ـــ بالرغم من تلهفهم على تنفيذ الوصية ـــ يجدون أنفسهم فى موقف ضعيف ، إذ أن نظام التهوية والإضاءة فى المتحف الذى أنشئ عام ١٩١٨ ، لا يناسب المواصفـات العالميـة المطلوبـة للحفاظ على مثل هذا العمل الثمين .. وهنـا ثار أهـالى العاصمة .. وعقـدوا الاجتماعـات الشعبيـة المتحمسة ، وتعهدوا بعمل اكتتاب لتدعيم المتحف وتجديده ، وأبدوا تمسكهم باستقبال اللوحة تنفيذا لوصية الفنان العظيم .

وتحركت الجهة الخامسة التى لزمت الصمت طوال هذه المنازعـات .. إنها مدينة جرنيكـا .. صاحبة المأساة ، ومسرح الحدث الدامى المروع .. فقد انبرت هى الأخرى لتقول : إننا لا نفاخر بألف وستمائة لوحة من أعمال بيكاسو كما فعلت برشلونة ، ولكننا نستطيع أن نحصى أكثر من ألف وستمائة قتيل خلفتهم الطائرات النازية وراءها يوم الغـارة الوحشية .. وعلى ذلك فإن أحقيتنـا فى امتـلاك اللوحـة مشروعة ومشفوعة بدماء الشهداء !

إلا أن قسما كبيرا من أهل جرنيكا أعربوا عن تنازلهم عن هذه الأحقية .. بل وعارضوا بشدة مجرد مشاهدة اللوحة فى مدينتهم حتى لا تجدد أحزانهم وتذكرهم بمأساة آبائهم ، تلك المأساة الدامية التى يندى لها جبين الإنسانية .. وهددوا بحرق اللوحة إذا هى عادت إليهم . وبذلك انسحب من الساحة أحد المطالبين بالميراث ..

واحتدم النزاع ، وشهدت ساحات القضاء الإسبانى والأمريكى هذه الدعاوى التى يحشد كل طرف فيها قدر ما يستطيع من الحجج والأسانيد والدوافع والبراهين .. وأخيرا ..

تدخل الكونجرس الأمريكى ، وحسم النزاع .. فقرر فى مايو ١٩٧٨ أن اللوحة ينبغى إعادتها إلى الشعب الإسبانى وحكومته الديمقراطية . وبعد أربعة عشر شهرا من هذا القرار ، منح شعب الباسك الحكـم الـذاتى ، وصدر فى إسبانيا دستور ديمقراطى جديد ، ولم يلبث أن أعلن بعد ذلك أن لوحة جرنيكا ، فخر الفـن الإسبـانى الحديث ، تعبر الأطلنطى مرة أخرى فى عام ١٩٨١ ، لتعود إلى وطنها الأصلى أثناء الاحتفالات التى ستقام فى إسبانيا بمناسبة مرور

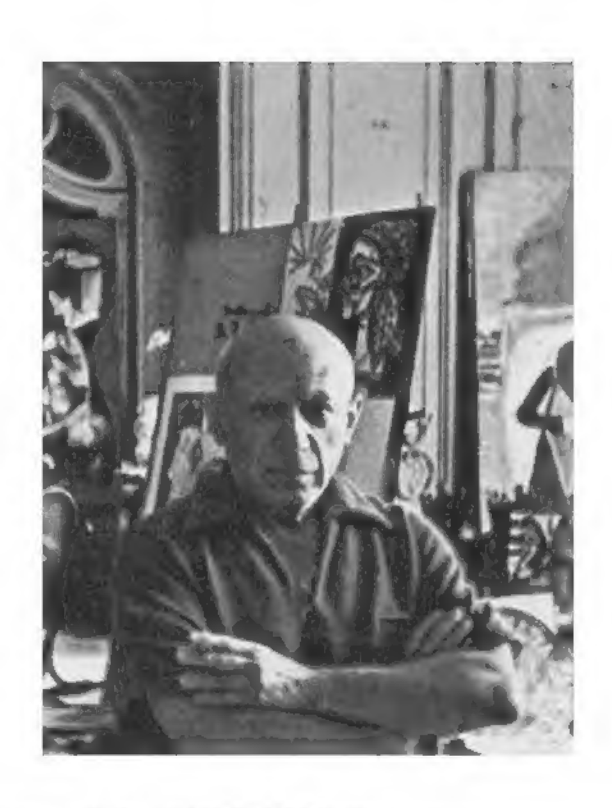


جرنيكا وقد احتلت مكانها في متحف الفن الحديث بنيويورك قبل أن تعود إلى إسبانيا

مائة عام على مولد بيكاسو .

... وفى صباح يوم ١٠ سبتمبر من عام ١٩٨١ نزلت طائرة أمريكية عملاقة على أرض المطار بالعاصمة الإسبانية مدريد ، وهى تحمل لوحة جرنيكا ، وكان فى استقبالها حرس شرف رسمى كما يستقبل العظماء ، وقد فرشت الأرض من تحتها ببساط أحمر ، وأطلقت المدفعية احتفاءً بها إحدى وعشرين طلقة .. قبل أن تأخذ طريقها إلى متحف البرادو تنفيذا للوصية .

وهكذا قوبلت اللوحة الشهيرة بمثل ما يقابل به الملوك والرؤساء .. وإن لم تكن هذه اللفتة الكريمة تحية للرسام الكبير ، فهى أروع تحية للفن الرفيع الذى يثير الوجدان ضد الحرب .. ويدعو إلى الحرية والسلام .



العربة المصفحة التى حملت الجرنيكا إلى متحف البرادو بمدريد فى ١٠ سبتمبر ١٩٨١ م


EC-DLD

[illegible]

فهـــرس

دار مصر للطباعة